

يسر

هَنْدَسَةُ الْإِحْيَاءِ

قِرَاءَةٌ فِي الْوَحْيِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالْبَعْثِ

مُحَمَّدُ رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



يس

هَنْدَسَةُ الْإِحْيَاءِ

قِرَاءَةُ فِي الْوَحْيِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالْبَعْثِ

رَدَّادُ السَّلَامِي 

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد الكبير

سورة يس: حين يوقظ القرآن الإنسان من موت الغفلة

ليست سورة يس مجرد سورة تتلى على الأسماع في لحظات الرقة، أو تُستدعى عند تخوم الموت، أو تُقرأ في مجالس الوداع والرجاء، مع ما في ذلك من أثرٍ إيمانيٍّ عظيم إذا صحَّ القصد واستقام الفهم؛ بل هي، في عمق بنائها القرآني، سورة الحياة الكبرى، سورة الإنسان حين يُستدعى من رقاد طويل، لا رقاد الجسد، بل رقاد القلب، ولا نوم العين، بل نوم البصيرة، ولا موت اللحم والعظم، بل موت المعنى حين ينفصل الإنسان عن الوحي، وينسى مبدأه، ويغفل عن مصيره، ويعيش في العالم كأنه لم يُخلق، وكأن الأرض لم تُحي بعد موتها أمام عينيه، وكأن الشمس والقمر والليل والنهار ليست آيات سائرة في أفق الوجود، وكأن العظام التي قامت أول مرة من العدم يستحيل عليها أن تقوم مرة أخرى بأمر من خلقها وعلم تركيبها وسرّها ومآلها.

إن سورة يس لا تخاطب الإنسان من طرفٍ واحد، بل تُحاصره بالحق من الجهات كلها: تأتيه من جهة الوحي فتقسم بالقرآن الحكيم، وتأتيه من جهة الرسالة فتثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم على صراط مستقيم، وتأتيه من جهة التاريخ فتقص عليه خبر أصحاب القرية، وتأتيه من جهة الفطرة فتريه الأرض الميتة وهي تحيا، وتأتيه من جهة الكون فتفتح له الليل والنهار والشمس والقمر والفلك المشحون، وتأتيه من جهة النفس فتفضح الأغلال

التي تجعل الإنسان لا يبصر، والسدود التي تجعله لا يهتدي، وتأتيه من جهة الآخرة فتوقفه فجأة أمام الصيحة، والبعث، والحساب، وامتنياز المجرمين، وختم الأفواه، وشهادة الجوارح، ثم تنتهي به إلى التوحيد الخالص: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ولهذا فإن سورة يس ليست خطاباً عن الموت وحده، كما شاع في وجدان كثير من الناس، بل هي خطاب عن الحياة قبل الموت، وعن الموت الذي يكشف زيف الحياة الغافلة، وعن البعث الذي يفضح كل فلسفة لم تبين الإنسان على اليقين. إنها سورة الإحياء؛ إحياء القلب بالوحي، وإحياء الوعي بالإنذار، وإحياء النظر بالآيات، وإحياء التاريخ بالعبرة، وإحياء الجسد بعد الموت بقدرة الله التي لا يعجزها شيء.

ومن هنا يمكن أن نقرأ السورة تحت عنوان جامع:

هندسة الإحياء وبناء الإنسان المستيقظ.

فالإحياء في سورة يس ليس معنى واحداً، بل طبقات متداخلة:

هناك إحياء الوحي للقلوب، حين يجيء القرآن لا ليزيد الإنسان معلومات، بل ليعيد تركيب جهاز التلقي في داخله، فيجعله يسمع سماع من يريد النجاة، ويبصر إبصار من لا يكتفي بسطح الأشياء.

وهناك إحياء الأرض الميتة، حيث تتحول التربة الجامدة إلى مشهد بعث صغير يتكرر في العالم كل يوم، كأن الكون يدرب الإنسان على التصديق بالآخرة قبل أن يدخلها.

وهناك إحياء العظام وهي رميم، وهو الإحياء الأكبر الذي يستنكره الإنسان حين ينسى أول خلقه، فيردّ القرآن عليه لا بإطالة جدلية مترهلة، بل بضربة برهانية قاطعة: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ).

وهناك إحياء المسؤولية، حين تنطق الجوارح، ويكتشف الإنسان أن جسده الذي سخره في المعصية لم يكن ملكًا مطلقًا له، بل كان أمانة شاهدة، وأن الفم الذي طالما خاصم ودافع وزين واعتذر سيُختم عليه، فإذا بالأيدي والأرجل تقول ما كان اللسان يخفيه.

وهناك إحياء الذاكرة الأولى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ)، فالسورة لا تجعل الإنسان غريبًا عن الحق، بل ترده إلى عهد مغروس في أصل تكوينه، كأن المشكلة ليست أن الحق لم يبلغه، بل أن الغفلة غطّت على ما بلّغه، وأن الهوى شوّه ما عرّفه، وأن الشيطان استدرجه من موضع العهد إلى موضع النسيان.

واللافت في سورة يس أنها تبني اليقين لا من طريق واحد، بل من شبكة آيات متكاملة: الوحي، الرسول، التاريخ، الأرض، النبات، الأزواج، الليل، النهار، الشمس، القمر، السفن، الأنعام، خلق الإنسان، النار في الشجر الأخضر، الأمر الإلهي، الملكوت. وهذه الشبكة ليست زخرفة معرفية، بل هندسة إيمانية؛ لأن الإنسان إذا لم يستيقظ من آية، أيقظته أخرى، وإذا جادل في البعث، ذُكِّر بالخلق الأول، وإذا غفل عن الوحي، أُحيل إلى الكون، وإذا اغترّ بالحاضر، أُوقف عند القيامة، وإذا ظنّ أن اللسان سينقذه، قيل له: إن الجوارح نفسها ستتكلم.

إنها سورة تلاحق الغفلة حتى لا تترك لها ملجأ.

ومع ذلك، لا تفعل ذلك بصخبٍ خطابي، بل بإيقاع عجيب يجمع بين الحسم والرقّة، بين القوارع والمشاهد، بين البرهان والجمال، بين الصيحة الواحدة والجنات والعيون، بين عذاب المكذبين وسلام الرب الرحيم. وهذا من أسرار سورة يس: أنها لا تجعل الإيمان قناعة باردة، بل توقف الوجدان كله؛ فالإنسان فيها لا يفكر فقط، بل يرتجف، ويتذكر، ويتخيل، ويرى، ويسمع، ويُسأل، ويُدان، ثم يجد في آخر الطريق أن الأمر كله بيد الله، وأن الرجوع إليه ليس احتمالاً من احتمالات الفكر، بل حقيقة الوجود الكبرى.

الفصل الأول

القسم بالقرآن الحكيم: حين يبدأ البناء من يقين الرسالة

تفتتح سورة يس بهذا المطلع المهيّب:

(يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

منذ اللحظة الأولى لا تترك السورة الإنسان في حياد بارد، ولا تبدأ معه من منطقة رخوة، بل تضعه أمام أصل الأصول: القرآن، والرسالة، والصراط، والتنزيل، والعزة، والرحمة. كأن السورة تقول له: إن الخلل الذي سيظهر لاحقاً في موقف المكذابين من البعث، ومن الآيات، ومن القيامة، ومن العهد الإلهي، ليس خلاً منفصلاً عن موقفهم من الوحي؛ فمن اضطرب عند أصل التلقي اضطرب عند كل نتيجة، ومن لم يعرف مصدر النور تخبط في تفسير الطريق.

القسم هنا ليس احتياجاً إلى تأكيد من جهة الله، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو إيقاظ للمتلقي، ورفع للمعنى المقسم به، وتنبيه إلى أن ما يأتي بعده ليس خبراً عادياً، بل حقيقة مؤسسة. فالقرآن هنا يوصف بأنه **حكيم**، والحكمة ليست مجرد جمال في العبارة، ولا مجرد إحكام في النظم، وإن كان ذلك داخلاً في جلاله، بل هي وضع كل شيء في موضعه: الكلمة في موضعها، والآية في موضعها، والإنذار في موضعه، والرحمة في موضعها، والبرهان في

موضعه، والمشهد في موضعه، حتى لا تجد في السورة كلمة زائدة، ولا انتقالًا عابرًا، ولا صورة منفصلة عن غايتها.

القرآن الحكيم هو القرآن الذي لا يتكلم ليبهر فقط، بل ليهدي؛ ولا يصور ليزين فقط، بل ليكشف؛ ولا ينذر ليخيف مجرد تخويف، بل لينقذ الإنسان من مصير هو صائر إليه إن أصرَّ على غفلته. ولذلك جاءت السورة كلها تطبيقًا لهذا الوصف: حكمة في ترتيب المعاني، وحكمة في تنويع الأدلة، وحكمة في كشف النفس، وحكمة في وصل الدنيا بالآخرة، وحكمة في جعل الكون كتابًا مفتوحًا لمن لم ينتفع بالكتاب المتلو.

ثم يأتي جواب القسم: (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

وهنا تتبدى مركزية الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء اليقين.

فالقرآن لا يقدم الرسالة بوصفها فكرة معلقة في الهواء، بل بوصفها وحيًا يحمله رسول، ويتجسد في بلاغ، ويصطدم بالتكذيب، ويصبر على الإعراض، ويدعو إلى طريق مستقيم. إن الإنسان لا يحتاج إلى معنى مجرد فقط، بل يحتاج إلى دليل بشري مؤيد بالوحي، يمشي بين الناس، يحمل إليهم خبر السماء، ويعيد ترتيب علاقتهم بالله والوجود والمصير.

ولذلك قال بعدها: (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وهذه العبارة في غاية الدقة؛ فلم يقل فقط: إنك لمن المرسلين، بل بين طبيعة الموضع الذي هو عليه: على صراط مستقيم. والصراط ليس فكرة ذهنية، بل طريق، والطريق يدل على حركة واتجاه وغاية. والاستقامة هنا ليست مجرد سلامة أخلاقية، بل سلامة منهجية ووجودية؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم

ليس صاحب رأي بين الآراء، ولا شاعرًا من الشعراء، ولا حكيماً أرضياً من الحكماء، ولا مصلحاً اجتماعياً بالمعنى المحدود، بل هو على طريق موصول بالله، مستقيم في مصدره، مستقيم في غايته، مستقيم في منطقته، مستقيم في أثره على الإنسان.

ومن لم يفهم هذه المركزية سيقراً سورة يس قراءة ناقصة؛ لأنها لا تبدأ بالبعث مباشرة، مع أن البعث من أعظم محاورها، ولا تبدأ بالكون، ولا بأصحاب القرية، ولا بالأرض الميتة، بل تبدأ بتثبيت الوحي والرسالة، لأن كل ما بعدها فرع عن هذا الأصل. فإذا ثبت أن القرآن حكيم، وأن الرسول مرسل، وأن الطريق مستقيم، صار الإنذار حقاً، وصار البعث حقاً، وصارت الآيات حقاً، وصار الحساب حقاً، وصار الاعتراض على قدرة الله ضرباً من الجحود لا من البحث الصادق.

ثم تأتي العبارة التي تجمع بين الهيبة والحنان: (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

وهذا من أعجب مواقع الجمع بين الاسمين: العزيز الرحيم. فلو قيل: تنزيل العزيز وحده، لاستحضرت النفس معنى القهر والغلبة والسلطان، ولو قيل: تنزيل الرحيم وحده، لاستحضرت معنى اللطف والإنقاذ والرافة، ولكن جمع الاسمين يرسم طبيعة القرآن نفسه: وحي قوي لا يُغلب، رحيم لا يريد بالإنسان الهلاك؛ وحي ينذر بقوة، لأنه رحمة؛ ويكشف بقوة، لأنه لا يريد للإنسان أن يموت في غفلته؛ ويهدم أوهام الكبر، لأنه يريد أن يحرر القلب من عبودية غير الله.

إن القرآن في سورة يس نازل من عزة ورحمة، ولذلك كانت السورة شديدة ورفيقة في آن واحد: شديدة على الغفلة، رفيقة بالإنسان؛ شديدة في فضح

التكذيب، رفيقة حين تفتح باب النجاة؛ شديدة في مشاهد القيامة، رفيقة حين تقول عن أهل الجنة: **(سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ)**.

وهذا هو الفرق بين خطاب بشري يريد الانتصار في الجدل، وخطاب رباني يريد إنقاذ الإنسان. الخطاب البشري قد يفرح بإسكات الخصم، أما القرآن فيريد إحياءه؛ قد يكتفي الإنسان بأن يغلب حجة الآخر، أما القرآن فيكشف الحجة ليعود القلب إلى ربه. ولهذا كانت سورة يس سورة إنذار، لكنها ليست سورة قسوة؛ إنها السورة التي تفرع القلب لتوقظه، لا لتحطمه، وتضع الإنسان أمام الموت والبعث لا لتغلق عليه الأفق، بل لتفتح له الطريق الوحيد الذي يليق به: طريق العبودية الواعية، واليقين المستيقظ، والرجوع إلى الله قبل أن يكون الرجوع اضطرارًا لا اختيار فيه.

الفصل الثاني

الإنذار بين الحياة والموت: لماذا لا ينتفع كل سامع؟

بعد تثبيت الوحي والرسالة والصراط، تقول السورة:

(لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

هنا تظهر كلمة من مفاتيح السورة كلها: **الغفلة**. ليست المشكلة الأولى في سورة يس أن الإنسان لا يملك عقلاً، ولا أن الكون يخلو من الآيات، ولا أن الحجة ناقصة، بل أن الإنسان قد يعيش في حالة من الانفصال الداخلي عن الحقيقة، يسمع ولا ينتبه، يرى ولا يعتبر، يعيش في نعم الله ولا يتساءل، يمرّ على الموتى ولا يستعد، يرى الأرض تحيا بعد موتها ولا يفهم أن في ذلك توقيعا كونيا على إمكان بعثه.

الغفلة ليست جهلاً بسيطاً، بل هي نوم المعنى داخل الإنسان. قد يكون الغافل ذكياً في دنياه، واسع الحيلة في مصالحه، حاضر الذهن في تجارته وخصوماته، ولكنه ميت من جهة المصير، ميت من جهة السؤال الأعلى، ميت من جهة علاقته بالله. ولذلك كانت السورة لاحقاً تقول:

(لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا)

وهذه من أعمق العبارات في السورة؛ لأن ظاهرها يثير السؤال: وهل يُنذر إلا الحي؟ لكن القرآن يكشف هنا أن الحياة التي تؤهل الإنسان للانتفاع بالإنذار ليست مجرد حياة الجسد، بل حياة القلب. هناك أناس يمشون في الأسواق

وهم، من جهة التلقي عن الله، في حكم الموتى؛ وهناك أناس قد رقت قلوبهم للحق، فصاروا أحياء قبل أن تزيدهم الموعظة علمًا.

من هنا نفهم أن الإنذار لا يعمل في كل إنسان بالطريقة نفسها؛ لأن الوحي، مع كماله، لا يدخل قلبًا أغلق صاحبه منافذه. الشمس واحدة، لكنها لا تضيء بيتًا أصرَّ صاحبه على إغلاق نوافذه، والماء طهور، لكنه لا يحيي أرضًا جعلت على وجهها صخرًا صلدًا لا يقبل التشرب. وكذلك القرآن: هو هدى، لكنه لا ينتفع به إلا من بقيت فيه قابلية الهداية.

ولذلك تأتي الآيات بعدها في تصوير نفسي مرعب: **(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٣﴾)**

هذه ليست صورة خارجية فحسب، بل تشريح داخلي للإنسان حين يعاقب على إصراره. الأغلال في الأعناق تجعل الرأس مرفوعًا قسرًا، لا رفعة كرامة، بل تيبس استكبار؛ فلا يستطيع صاحبه أن يخفض رأسه خضوعًا، ولا أن يلتفت التفات الباحث، ولا أن ينحني للحق. إنها صورة الكبر حين يتحول إلى قيد، وصورة العناد حين يصير بنية نفسية تمنع الإنسان من أبسط حركات النجاة: أن يطأطئ رأسه أمام الله.

ثم تأتي السدود: من بين أيديهم سد، ومن خلفهم سد. فلا الماضي ينفعهم بالعبرة، ولا المستقبل يوقظهم بالخوف، ولا الأمام مفتوح للهداية، ولا الخلف مفتوح للتذكر. إن الإنسان هنا لا يعيش في طريق، بل في حصار؛ محاصر بما صنعه من إعراض، محاصر بتاريخه السيئ، محاصر بتوقعاته الفاسدة،

محاصر برفضه أن يرى. ثم تأتي الكلمة الفاصلة: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

وهذا من أخطر قوانين القرآن في النفس: أن الإعراض المتكرر ليس موقفًا عابرًا يمرّ بلا أثر، بل قد يتحول إلى بنية، ثم إلى حجاب، ثم إلى عقوبة. الإنسان لا يبقى حرًا بالمعنى الذي يتوهمه إذا ظل يرفض الحق؛ بل كل رفض يترك في القلب أثرًا، وكل إعراض يضيف طبقة، وكل استكبار يغلق نافذة، حتى يصل إلى حال لا يعود فيها عدم الإيمان مجرد اختيار فكري، بل عمى داخلي نشأ من تاريخ طويل من الخذلان والإعراض.

ومع ذلك، لا تجعل السورة الإنذار عبثًا، بل تبين من ينتفع به: (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

هنا يخرج النموذج المقابل: إنسان يتبع الذكر، ويخشى الرحمن بالغيب. والآية لم تقل: وخشي الجبار، أو المنتقم، مع أن لله الأسماء الحسنى كلها، بل قالت: الرحمن، لتكشف أن الخشية القرآنية ليست رعبًا من مجهول، بل هي خشية من رب رحيم، خشية تحفظ القلب من الابتذال، وتمنعه من أن يسيء الأدب مع الرحمة، وتجعله يستحي أن يقابل النعم بالجحود، والوحي بالإعراض، والحلم بالتمرد.

والخشية بالغيب هي علامة الحياة الكبرى؛ لأن صاحبها لم ينتظر أن يرى القيامة حتى يؤمن، ولم ينتظر أن تنطق جوارحه حتى يتوب، ولم ينتظر أن تنكشف الحجب حتى يخضع، بل صدّق وهو في دار الاختبار، وخاف وهو قادر على أن يعصي، واتبع الذكر وهو لم يرَ بعدُ كل ما وُعد به. هذا الإنسان

هو الحي الذي تنفعه سورة يس، وهو الإنسان الذي تُبنى له السورة من الداخل.

ثم تقول الآية: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾

ما أعظم هذا الانتقال: من الإنذار إلى البشارة، ومن الخشية إلى الكرامة، ومن الغيب إلى الأجر الكريم. كأن السورة تقول إن الخشية ليست نهاية الطريق، بل بابه؛ وأن من خاف الله في الغيب آمنه الله في المصير؛ وأن من صدّق قبل الانكشاف أكرم عند اللقاء.

ثم يأتي الأصل الجامع: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

هذه الآية وحدها تكاد تكون مفتاح سورة يس كلها. فهي تجمع الإحياء، والكتابة، والآثار، والإحصاء. الله يحيي الموتى، فلا موت يخرج عن قدرته؛ ويكتب ما قدموا، فلا عمل يضيع؛ ويكتب آثارهم، فلا تأثير ينفصل عن صاحبه؛ ويحصى كل شيء، فلا فوضى في الوجود، ولا عبث في التاريخ، ولا نسيان في الحساب.

وما أعمق قوله: ﴿وَأَثَارَهُمْ﴾. فالإنسان لا يترك أعمالاً فقط، بل يترك آثاراً؛ كلمة قالها ومضت في الناس، عادة سنّها، فكرة بثّها، ظلماً فتح بابه، خيراً دلّ عليه، كتاباً كتبه، وعياً بناه، شبهة أطلقها، رحمة أجراها الله على يديه. سورة يس لا تجعل الإنسان كائن اللحظة، بل كائن الامتداد. أنت لا تُحاسب على ما فعلته فقط، بل على ما امتد منك بعدك، وما بقي من ظلك في العالم، خيراً كان أو شراً.

وهنا تتصل السورة بمشروع الكتابة والفكر والدعوة؛ فالكاتب ليس مجرد صاحب كلمات تنتهي عند القارئ الأول، بل صاحب آثار. قد يموت الجسد وتبقى الجملة عاملة في قلب إنسان، وقد يختفي الصوت وتبقى الفكرة توقظ، وقد يرحل المؤلف ويبقى أثره شاهداً له أو عليه. ومن فهم هذه الآية لم يكتب عبثاً، ولم يتكلم استخفافاً، ولم يبيث معنى دون أن يسأل: ما الأثر الذي سيخرج من هذه الكلمة؟ هل تزيد الناس قرباً من الله، أم تزيدهم غموضاً واضطراباً وغفلة؟

إن سورة يس منذ مطلعها لا تربي القارئ على الإيمان فقط، بل على المسؤولية عن أثر الإيمان في العالم.

الفصل الثالث

أصحاب القرية: صراع الرسالة مع منطق الاعتیاد والمصالح

بعد أن تعرض السورة قضية الوحي والرسالة والإنذار والغفلة، تنقلنا إلى مشهد تاريخي مكثف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

والقرآن حين يقول: واضرب لهم مثلاً، فإنه لا يقص للتسلية، ولا يستعيد التاريخ من أجل التاريخ، بل يجعل الواقعة مرآة متكررة، يرى فيها كل عصر نفسه.

فأصحاب القرية ليسوا مجرد جماعة مضت، بل نموذج إنساني دائم: مجتمع تأتيه الدعوة، فيقاومها لا لأنها بلا حجة، بل لأنها تهدد مألوفه، وتكشف عريه، وتطالبه بأن يخرج من سلطان العادة إلى سلطان الحق.

تقول الآيات: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾

إنها صورة عجيبة لتكاثر الحجة في مقابل تكاثر العناد. جاءهم اثنان، فكذبوهما، فعزز الله بثالث. والمعنى هنا أن الله لا يعاجل الناس دائماً بالعقوبة من أول إعراض، بل يمدّ لهم في البيان، ويقيم عليهم الحجة، ويرسل إليهم من وجوه التذكير ما يقطع المعذرة. لكن النفس التي لا تريد الحق لا يزيدها

تكاثر الأدلة إلا تصلبًا، لأنها لا تبحث عن البرهان، بل تبحث عن مخرج من البرهان.

فماذا قالوا؟

(مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

هذه واحدة من أقدم شبهات المكذبين: الاعتراض على بشرية الرسول. كأنهم يقولون: ما دام الرسول بشرًا، فلا يمكن أن يكون مرسلاً. والخلل هنا ليس في المقدمة وحدها، بل في تصورهم لطبيعة الهداية؛ فهم يريدون رسالة لا تمرّ عبر بشر، مع أن الله جعل الرسالة البشرية أليق بالإنسان، لأن الرسول لا يبلغ الكلام فقط، بل يجسد الطريق، ويترجم الوحي إلى حياة، ويثبت أن الاستقامة ممكنة داخل شروط البشر.

ثم انظر إلى قولهم: (وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ). لقد أنكروا التنزيل من جهة الرحمن، وكأن السورة تعيدنا إلى مطلعها: (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ). فالمعركة في جوهرها ليست حول الرسل وحدهم، بل حول قبول أن الله يخاطب الإنسان، وأن هذا الخطاب رحمة، وأن الإنسان ليس متروكًا لنفسه في ظلمات الأرض.

فيرد المرسلون: (رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

هنا تظهر أخلاق الرسالة. لم يدخلوا في صخب طويل، ولم يجعلوا أنفسهم مركز المعركة، بل أحالوا الأمر إلى علم الله، وحددوا وظيفتهم: البلاغ المبين. وهذه قاعدة لكل حامل حق: ليست وظيفتك أن تملك قلوب الناس، ولا أن

تكرهم على الهداية، ولا أن تجعل قبولهم معيار صدقك، بل أن تبلغ بلاغًا مبيّنًا، واضحًا، صادقًا، رحيماً، قوياً، ثم تترك للحق طريقه والله حكمه.

لكن المجتمع الغافل لا يكتفي برفض الحجة، بل يحوّل وجود المصلحين إلى مصدر شؤم: (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هنا ينتقل التكذيب من جدل إلى تهديد. وهذه سُنّة تتكرر: حين يعجز الباطل عن إبطال الفكرة، يهدد حاملها؛ وحين لا يستطيع أن يهزم البرهان، يستدعي العنف؛ وحين يضيق صدره بالبلاغ المبين، يطلب من أصحاب الحق أن ينتهوا، لا لأنهم أخطأوا، بل لأنهم أيقظوا ما يريد أن يبقى نائماً.

والتطير هنا يكشف نفسية عميقة: المجتمع الفاسد لا يريد أن يرى سبب شقائه في داخله، فيعلقه بالمصلح. بدل أن يقول: شؤمنا من ظلمنا، من شركنا، من فسادنا، من انحرافنا، يقول: شؤمنا منكم. وهذا من أقدم أساليب الهروب الأخلاقي: تحويل الناصح إلى سبب الأزمة، حتى لا يضطر الإنسان إلى مواجهة نفسه.

فيرد المرسلون: (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

ما أبلغ هذا الرد: طائرکم معکم. مصدرکم من داخلکم، لا من الرسل. أزمتمک لیست فی التذکیر، بل فی رفض التذکیر. مصیبتکم لیست فی الصوت الذي دعاکم إلى النجاة، بل فی الإسراف الذي صار بنية فی حیاتکم. أنتم لا تُعاقبون لأنکم سمعتم الحق، بل لأنکم حولتم سماعه إلى مناسبة للعداوة.

وهنا تبلغ القصة لحظة التحول الكبرى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى
قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

هذا الرجل هو منارات سورة يس. لم تذكر الآية اسمه، لأن القيمة ليست في الاسم، بل في الموقف. وقد يكون إخفاء اسمه تعميماً لمعناه؛ فكل إنسان يستطيع أن يكون هذا الرجل إذا نهض من أقصى الهامش إلى قلب المسؤولية، وإذا غلبت فيه حرارة الإيمان برودة الخوف، وإذا شعر أن الحق إذا حُورب لا يجوز أن يبقى المؤمن متفرجاً.

جاء من أقصى المدينة، لا من مركز السلطة، ولا من موضع الوجاهة، ولا من منصة النفوذ. جاء من الأطراف، لكن قلبه كان في المركز. وهذه من عظمة القرآن: قد يكون الإنسان هامشياً في خرائط الناس، لكنه مركزي في ميزان الله. قد لا يملك منصباً، ولا جيشاً، ولا جاهاً، لكنه يملك صدقاً يجعله أمة في رجل.

ولم يقل: يا قوم، اتركوني أشرح لكم تجربتي، ولا بدأ بنفسه، بل قال مباشرة:

(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

إنه يضع معيارين عظيمين للدعوة الصادقة: أنها لا تتكسب من الناس، وأنها مهتدية في نفسها. من لا يسأل الناس أجراً على الحق، ولا يجعل الهداية سلعة، ولا يبتز حاجتهم إلى المعنى، ثم يكون هو في نفسه على هدى؛ فهذا أولى بالاتباع ممن يملك الصخب والمصالح والشعارات.

ثم ينتقل إلى منطقه الإيمان الخاص: (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ)

هذه العبارة من أصفى عبارات الفطرة في القرآن. لم يقل: وما لكم لا تعبدون، مع أن هذا مقصوده، بل بدأ بنفسه: **وما لي لا أعبد**. وهذا أسلوب رفيع في الدعوة؛ أن تجعل نفسك داخل الخطاب، وأن تعرض الحق كضرورة فطرية قبل أن تجعله اتهامًا للآخرين. ثم قال: **الذي فطرني**، لا الذي خلقتني فقط، لأن الفطر يدل على البدء المخصوص، على الصنعة الأولى، على أن العبادة ليست إضافة طارئة على الإنسان، بل رجوع إلى أصل تكوينه.

ثم أدرجهم في المصير: **وإليه ترجعون**. كأنه يقول: الذي فطرني هو الذي ترجعون إليه، فالقضية ليست تجربتي وحدي، بل مصيرنا جميعًا. وهذه هي بلاغة المؤمن حين يخاطب قومه: يجمع بين حميمية النداء وصلابة المصير.

ثم يقول: **(أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۚ إِنَّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ إِنَّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)**

هنا يبلغ الرجل ذروة وضوحه. الإيمان عنده ليس ترفًا فكريًا، بل نجاة من ضلال مبين. والآلهة الباطلة لا تنقذ، ولا تشفع، ولا تملك أمام إرادة الرحمن شيئًا. ومن العجيب أنه يقول: **إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ**، فيحضر اسم الرحمن حتى في سياق الضر، لأن المؤمن يرى أن الأمر كله لله، وأن الضر ليس خروجًا من سلطان الرحمة والحكمة، وأن ما يملكه الله لا يملكه أحد سواه.

ثم يعلنها: **(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)**

هذه ليست جملة عابرة، بل توقيع الوجود كله في لحظة. رجل واحد في وجه جماعة، إيمان واحد في وجه مدينة، صوت واحد في وجه تهديد. وهكذا يعلمنا

القرآن أن الحق لا يقاس بعدد الواقفين معه، بل بصدقه في نفسه. قد تكون وحدك، لكنك لست قليلاً إذا كنت مع الحق؛ وقد يكونون كثرة، لكنهم ليسوا قوة إذا كانوا ضد الله.

ثم يحدث التحول المفاجئ: **(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ)**

اختصر القرآن ما وقع له في الدنيا، ولم يطل وصف قتله أو إيذائه، لأن مركز القصة ليس بشاعة المجرمين، بل كرامة المؤمن. كأن القرآن يطوي مشهد العنف الأرضي ليفتح مباشرة مشهد الجزاء السماوي. لحظة واحدة تفصل بين اضطهاد الأرض وكرامة السماء. وهذا من أعظم ما يثبت الدعاة والمصلحين: أن ما يراه الناس نهاية قد يكون في ميزان الله بداية الدخول إلى النعيم.

ثم يقول: **(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)**

ما أرقى هذه النفس. لم يقل بعد أن رأى الجنة: يا ليت قومي ذاقوا ما ذقت من عذابهم ليعرفوا، ولم يقل: الحمد لله الذي انتقم لي، بل قال: **يا ليت قومي يعلمون**. بقي قلبه على قومه حتى بعد أن آذوه. هذه هي أخلاق الإيمان حين يبلغ صفاءه: لا تتحول الخصومة مع الباطل إلى حقد على هداية الناس، ولا يجعل المؤمن جراحه الشخصية حجاباً بينه وبين الرحمة.

إنه يريد لهم أن يعلموا، لا أن يهلكوا. يريد أن تصل إليهم حقيقة ما رأى: أن المغفرة حق، وأن الإكرام حق، وأن ما دعاهم إليه لم يكن وهمًا. وهذه العبارة وحدها تكشف الفرق بين صاحب الدعوة وصاحب الانتصار الشخصي؛

صاحب الانتصار الشخصي يريد أن يثبت أنه كان على حق، أما صاحب الدعوة فيريد للناس أن ينجوا بالحق.

وهنا نصل إلى معنى عظيم في سورة يس: إن الإنسان المستيقظ ليس فقط من آمن لنفسه، بل من حمل همّ إيقاظ غيره. السورة لا تبني مؤمناً منعزلاً عن العالم، بل مؤمناً يسعى من أقصى المدينة، يدخل في المخاطرة، يعلن الحق، ثم يظل رحيماً حتى بعد أن يرى ما أعد الله له من الكرامة.

خلاصة البناء في هذه البداية

بهذه الفصول الأولى يتشكل العمود الفقري للكتاب:

سورة يس تبدأ بتثبيت الوحي، ثم تشريح الغفلة، ثم بيان من ينتفع بالإنذار، ثم تقديم نموذج تاريخي للصراع بين الرسالة والمجتمع، ثم ترفع رجالاً مؤمناً من أقصى المدينة ليكون شاهداً على أن الإيمان الحق لا يبقى فكرة ساكنة، بل يتحول إلى سعي، وبلاغ، وتضحية، ورحمة.

ومن هنا يمكن للكتاب أن يمضي بعد ذلك إلى القسم الكوني من السورة، حيث الأرض الميتة، والنخيل، والأعنان، والعيون، والأزواج، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفلك؛ ثم ينتقل إلى مشاهد القيامة، وختم الأفواه، وشهادة الجوارح، وبرهان إحياء العظام، حتى يبلغ الخاتمة الكبرى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

الفصل الرابع

آية الأرض الميتة: البعث مكتوب في جسد العالم

بعد أن عرضت السورة مشهد الرسالة، وصراعها مع القرية، وقيام الرجل المؤمن من أقصى المدينة، تنتقل فجأة إلى الكون، ولكن الانتقال ليس فجائيًا في عمق البناء، بل هو انتقال من آيات البلاغ إلى آيات الوجود؛ كأن السورة تقول للإنسان: إن لم تفهم من خطاب الرسل، فانظر إلى الأرض تحت قدميك؛ وإن جادلت في الكلام المسموع، فاقراء الكتاب المنشور؛ وإن أنكرت البعث لأنه غاب عن حسك، فانظر كيف يتكرر أمامك مثال البعث في كل موسم، وكيف تقوم الحياة من مواضع ظننتها نهاية الحياة.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

هذه الآية ليست مجرد إحالة إلى ظاهرة زراعية يعرفها الناس، بل هي تحويل الظاهرة المألوفة إلى برهان كوني؛ فالإنسان من كثرة ما يرى الأشياء ينسى معناها، ومن طول اعتياده على النعمة تفقد في عينه دهشتها، فيأتي القرآن ليردّ إلى المؤلف هيئته الأولى، ويقول له: إن الأرض التي تمشي عليها ليست صامتة كما تظن، بل هي شاهدة، وإن الحب الذي تأكله ليس مجرد غذاء، بل دليل، وإن دورة النبات ليست مجرد انتظام طبيعي، بل توقيع من قدرة الله على أن الحياة ليست ممتنعة بعد الموت.

العبارة القرآنية تبدأ بكلمة جامعة: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾.

أي أن القضية ليست في وجود الأرض الميتة فقط، ولا في إحيائها فقط، بل في كون ذلك كله آية، والآية هي العلامة التي تعبر بك من ظاهرها إلى ما وراءها، من الحس إلى المعنى، من المشهد إلى القدرة، من النبات إلى البعث، من الطعام إلى الشكر، من الأرض إلى الله.

هنا يعلمنا القرآن أن المشكلة ليست في قلة الآيات، بل في موت قابلية القراءة. فالعالم مملوء بالعلامات، ولكن الإنسان إذا غفل لم يعد يرى في العلامة إلا مادتها القريبة؛ يرى الحب طعامًا ولا يرى فيه رحمة، ويرى النبات محصولًا ولا يرى فيه إحياء، ويرى المطر موردًا ولا يرى فيه خطابًا، ويرى الأرض تحيا ثم لا يسأل: من الذي أحيها؟ ومن الذي يخرج من الصمت الأخضر، ومن اليبس الثمر، ومن السكون الحركة، ومن الموت حياةً تمشي في العروق والجذور والسنابل؟

﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾

في هذه العبارة القصيرة تنفتح فلسفة كاملة في النظر إلى الوجود.

الأرض ميتة، لا ادعاء فيها، ولا حركة ظاهرة، ولا وعد مرئي بالحياة، ثم يأتي فعل الله: أَحْيَيْنَاهَا. فالقرآن لا يترك الإحياء مبهمًا في قوانين مجردة، بل يردّه إلى فاعله الحق، لأن القوانين نفسها لا تعمل مستقلة عن الله، ولا تقوم بذاتها، ولا تمنح الوجود أمره. إن السنن لا تلغي المسنن، والنظام لا يستغني عن من أقامه، والتكرار لا يطفئ معنى القدرة، بل يؤكد لمن بقي قلبه حيًا.

والمدهش أن السورة لا تقول: أحييناها فأمنوا بالبعث فقط، بل تقول:
(وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)

فالآية تجمع بين البرهان والنعمة. ليست الأرض الميتة التي أحيها الله دليلاً عقلياً فحسب، بل مائدة للإنسان. الله لا يقيم عليه الحجة من بعيد، بل يضع الحجة في يده، وفي فمه، وفي قوته اليومية. هو يأكل من الدليل، ويتقوى بالآية، ثم قد يجادل في واهبها. أي مفارقة أعجب من أن يكون الطعام الذي يقيم جسد المنكر شاهداً على الرب الذي ينكره، وأن تكون اللقمة التي تمنحه القدرة على الكلام قائمة بإحياء الله، ثم يستعمل الكلام في الغفلة عن الله؟

هنا تبلغ السورة عمقاً مدهشاً: إنها تجعل الحياة اليومية نفسها ساحة اعتراف. كل رغيف، كل حبة، كل ثمرة، كل ماء يسري إلى الجذر، كل اخضرار بعد يباس، هو سؤال موجه إلى الإنسان: كيف تأكل من أثر القدرة ثم تنكر تمامها؟ كيف ترى الموت يُفتح للحياة في الأرض ثم تستبعد أن يفتح الله القبور؟ كيف تسلّم بأن الحبة المدفونة في التراب تخرج سنبله، ثم تستكثر على العظام أن تخرج بأمر الله أجساداً قائمة للحساب؟

إن البعث في سورة يس ليس فكرة تُلقى على الإنسان من خارج العالم، بل معنى مكتوب في العالم نفسه. الأرض تعلمك القيامة بلغة النبات، والسنابل تشرح لك إمكان الرجوع، والموت الموسمي يدرّب العقل على ألا يجعل السكون نهاية، ولا التحلل عدماً مطلقاً، ولا الغياب امتناعاً.

الفصل الخامس

النخيل والأعناب والعيون: الجمال بوصفه دليلاً على الرحمة والتدبير

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

لا تقف سورة يس عند حد إحياء الأرض وإخراج الحب، بل تمضي إلى صورة أبهى: جنات من نخيل وأعناب، وعيون متفجرة، وثمر مأكول، وعمل بشري داخل دائرة التسخير. هنا لا يقدّم القرآن الكون بوصفه آلة صماء تنتج الغذاء، بل بوصفه رحمة منظمة، وجمالاً نافعاً، ونظاماً مفتوحاً على الشكر.

النخيل والأعناب في الخطاب القرآني ليسا مجرد نوعين من النباتات، بل رمزان لكثافة النعمة: ارتفاع وامتداد، ظل وثمر، غذاء وبهجة، شكل ومنفعة، انتظام ووفرة. كأن القرآن يريد أن يحرر الإنسان من النظر البارد إلى الأشياء؛ فالنعمة ليست مجرد سدّ حاجة، بل تربية ذوق ووجدان. ولو أراد الله أن يطعم الإنسان بلا جمال لفعل، لكنه جعل الغذاء يأتي في هيئة شجر، ولون، ورائحة، وطعم، وموسم، ومشهد، وقطاف، وامتداد بصري يسرّ الناظرين.

هنا تتصل سورة يس بفقّه البهجة القرآني: فالله لم يجعل العالم صالحاً للبقاء فقط، بل جعله قابلاً للامتنان؛ ولم يجعل الأرض مخزناً للمواد فقط، بل جعلها فضاءً للدهشة؛ ولم يخلق الثمر مجرد تركيب غذائي، بل آية تتذوقها العين قبل الفم، ويتلقاها القلب قبل المعدة. إن الجمال في هذه الآيات ليس ترفاً خارج

مقصد الهداية، بل طريق من طرقها؛ لأن النفس التي ترى جمال التدبير أقرب إلى الشكر من النفس التي لا ترى في العالم إلا منفعة جامدة.

ثم يقول: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾

والتفجير هنا يوحى بالقوة والخفاء معاً؛ فالماء ليس ظاهراً دائماً على سطح الأرض، ولكنه مودع في أعماقها، ينتظر أمراً، ومجرى، وفتحاً. وهذه صورة عجيبة للرحمة المخبوءة في باطن الأشياء. كم من أرض تبدو جافة، وفي داخلها عين تنتظر أن تُفَجَّرَ، وكم من قلب يبدو ميتاً، وفي أعماقه قابلية إيمان تنتظر كلمة صادقة، وكم من إنسان يظنه الناس يابساً، فإذا مسّه الوحي تفجرت منه عيون المعنى.

والقرآن حين يذكر العيون بعد الجنات يربط بين الأصل والنتيجة: لا جنة بلا ماء، ولا ثمر بلا مدد، ولا حياة بلا مصدر خفي يغذيها. كذلك الإنسان: لا يثمر قلبه بلا مدد من الله، ولا تقوم فيه جنات اليقين بمجرد إرادة جافة، بل لا بد من عين داخلية يفتحها الله بالهداية، فإذا جرت في النفس، اخضر ما كان يابساً، وأثمر ما كان عاطلاً.

ثم تأتي الغاية: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾

في هذه العبارة توازن قرآني دقيق بين فعل الله وعمل الإنسان. الله هو الذي أحيا، وأخرج، وجعل، وفجر، ولكن الإنسان يعمل، يزرع، يسقي، يحرث، يصنع، يجني. فلا القرآن يلغي عمل الإنسان باسم التوكل، ولا يجعل عمل الإنسان أصل النعمة فينسى فضل الله. إن اليد تعمل داخل رحمة سبقتها،

والجهد يتحرك في نظام لم يصنعه، والزراع يبذر ولكنه لا يخلق الحبة، ويسقي ولكنه لا يخلق قابلية الإنبات، ويحصد ولكنه لا يملك سر الحياة.

وهذا المعنى شديد الأهمية في بناء الإنسان المستيقظ: أن يعرف موضع يده وموضع فضل الله. لا يحتقر العمل، ولا يؤلهه. لا يتواكل، ولا يغتر. يرى أن كسبه معتبر، لكنه ليس مستقلاً؛ وأن جهده مطلوب، لكنه محمول على نعمة أوسع منه؛ وأن الحضارة كلها، مهما بلغت من أدوات الإنتاج، لا تستطيع أن تستغني عن حبة يودع الله فيها سر الحياة، ولا عن قطرة ماء، ولا عن شمس، ولا عن تربة، ولا عن نظام كوني لم يخلقه الإنسان.

ثم تأتي الخاتمة الاستنكارية: (أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

كأن كل هذا البناء الكوني ينتهي إلى سؤال أخلاقي. لم يقل: أفلا يعلمون فقط، ولا أفلا ينظرون فقط، بل قال: أفلا يشكرون. لأن المعرفة التي لا تنتهي إلى شكر تبقى ناقصة، والنظر الذي لا يثمر امتناناً يبقى عاطلاً، والعقل الذي يرى النظام ثم لا يخضع للمنعم عقلٌ مبتور عن غايته.

الشكر هنا ليس كلمة تقال باللسان فحسب، بل موقف وجودي كامل: أن ترى النعمة منسوبة إلى واهبها، وأن تستعملها فيما يرضيه، وأن لا تجعلها وسيلة للغفلة عنه.

إن من يأكل من ثمر الله ثم يحارب هدي الله لم يشكر، ومن يسكن أرض الله ثم يستكبر على أمر الله لم يشكر، ومن يستمتع بجمال الخلق ثم ينسى حكمة الخالق لم يشكر.

ولهذا كان الشكر في سورة يس علامة استيقاظ، كما كانت الغفلة علامة موت. الإنسان المستيقظ لا يمر على النعمة مرور المستهلك، بل مرور الشاهد؛ لا يرى الطعام طعاماً فقط، بل رسالة؛ لا يرى الماء ماءً فقط، بل مدداً؛ لا يرى الشجرة شجرة فقط، بل آية؛ لا يرى عمل يده إنجازاً مستقلاً، بل توفيقاً داخل تسخير.

الفصل السادس

سبحان الذي خلق الأزواج كلها: النظام الكوني شاهد على الواحد الأحد

بعد ذكر الأرض، والحب، والجنات، والنخيل، والأعاب، والعيون، والشكر، ترتفع السورة إلى قانون أوسع من النبات والزراعة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

تبدأ الآية بالتسبيح: سبحان. وهذا الافتتاح ليس مجرد تعبير تعبدي منفصل عن المعنى، بل هو النتيجة الطبيعية للنظر الصحيح. فإذا رأى القلب نظام الأزواج في النبات، وفي الإنسان، وفيما لا يعلم، لم يجد عبارة أليق من التنزيه؛ لأن هذا النظام الواسع لا يدل فقط على القدرة، بل يدل على كمال العلم والحكمة، وعلى أن الخالق سبحانه ليس كمخلوقاته، ولا يشبه شيئاً من نظام الزوجية الذي خلقه في العالم؛ فهو الذي خلق الأزواج كلها، وهو سبحانه الواحد الأحد، الصمد، المنزه عن المماثلة والمثابهة.

وهذه الدقة العقديّة شديدة الأهمية: فالقرآن يذكر الأزواج في الخلق ليذل على افتقار المخلوقات وتكاملها وحاجتها، لا ليذل ذلك وصفاً للخالق؛ بل يبدأ بـ سبحان حتى يظل القلب في مقام التنزيه، فلا ينتقل من جمال النظام إلى وهم التشبيه. كل شيء في العالم قائم على الاحتياج، والاقتران، والتكامل، والتوالد، والافتقار إلى غيره؛ أما الله تعالى فهو الغني الحميد، الخالق لكل زوج، المنزه عن كل حدٍّ ونقصٍ وحاجة.

(خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا)

الأزواج هنا ليست مجرد ذكر وأنثى في المعنى القريب، بل قانون امتداد وتكامل وتنوع في الخلق. والآية توسع الدائرة: **مما تثبت الأرض**، أي في عالم النبات؛ **ومن أنفسهم**، أي في عالم الإنسان؛ **ومما لا يعلمون**، أي في عوالم غائبة عن إدراكهم. وهذا الامتداد من المعلوم إلى المجهول يربّي العقل على التواضع؛ فما يعرفه الإنسان من النظام ليس كل النظام، وما بلغه من العلم ليس نهاية الخلق، وما أدركه من الأزواج ليس إلا جزءاً من بحر أوسع. إن قوله: **(وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)** يفتح أفقاً معرفياً هائلاً.

فالقرآن لا يحبس الإنسان في معارف عصره، ولا يجعله يظن أن ما يراه هو كل شيء، بل يقول له: هناك من الخلق والنظام والأزواج ما لا تعلمون. وهذه العبارة وحدها تكفي لتربية عقل غير مغرور، عقل يعرف أن جهله أوسع من علمه، وأن الكون أكبر من أدواته، وأن ما غاب عنه لا يجوز أن يجعله مستحيلاً لمجرد أنه لم يدخل بعد في نطاق معرفته.

وهنا تتضح صلة الآية بموضوع البعث. فالإنسان الذي يستنكر إحياء العظام إنما يستنكره لأن خياله ضيق، ولأنه يقيس قدرة الله على ما يعلمه هو. فتأتي السورة قبل ذلك وبعده لتكسر هذا الضيق: هناك أزواج لا تعلمونها، وعوالم لا تحيطون بها، وأنظمة تعمل خارج حدود إدراككم، فكيف تجعلون جهلكم معياراً لما يقدر الله عليه؟ كيف تتحول محدودية الإنسان إلى اعتراض على رب العالمين؟

ثم إن نظام الأزواج يدل على أن الوجود ليس فوضى مبعثرة، بل هندسة. فالنبات ليس عبثاً، والإنسان ليس صدفة سائبة، وما لا نعلمه ليس خارج التدبير. كل شيء داخل علم الله، وكل شيء يجري بقدر، وكل تنوع في العالم

مشدود إلى وحدة الخالق. وهنا يتكوّن اليقين التوحيدي: الكثرة في المخلوقات لا تفتت المعنى، بل تقود إلى الواحد؛ والتنوع لا يدل على تعدد الآلهة، بل على سعة القدرة؛ والتكامل بين الأشياء لا يجعلها مستقلة، بل يكشف فقرها إلى من خلقها وأقامها.

ولهذا كان التسبيح أول الآية. التسبيح هو تصحيح النظر قبل أن يضل في التفاصيل. من دخل عالم الأزواج بلا تسبيح قد يفتن بالنظام وينسى المنعم، وقد يدرس الظاهرة وينسى خالقها، وقد يكتشف العلاقات ولا يرى من أقامها. أما القرآن فيعلّم القلب أن كل معرفة ينبغي أن تبدأ بالتنزيه وتنتهي به؛ فما ازداد الإنسان علماً بالخلق إلا ازداد تعظيماً للخالق، وما اتسعت أمامه قوانين الكون إلا ضاق في نفسه وهم الاستقلال.

ومن هنا يتشكل الإنسان المستيقظ: إنسان إذا رأى النبات قال: سبحان الله، وإذا رأى نفسه قال: سبحان الله، وإذا علم أن هناك ما لا يعلم قال: سبحان الله؛ لا تسبيح عادة اللسان وحده، بل تسبيح العقل حين يرى النظام، وتسبيح القلب حين يذوق الرحمة، وتسبيح الوعي حين يدرك أن كل شيء حوله آية، وأن الآية لا تُعبد، بل تدل على من خلقها.

الفصل السابع

الليل والنهار والشمس والقمر: هندسة المسارات وحدود المخلوقات

بعد أن فتحت السورة آيات الأرض والنبات والأزواج، تنتقل إلى آيات السماء والحركة والزمن: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿١﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

هذه الآيات من أبداع ما في سورة يس من هندسة كونية. إن السورة لا تعرض الكون بوصفه مشهدًا صامتًا، بل بوصفه نظامًا متحركًا، كل شيء فيه يجري بحد، ومقدار، وموقع، وزمن، ومسار. الليل لا يختلط بالنهار فوضى، والشمس لا تتجاوز حدها، والقمر لا يفلت من منازلها، وكل في فلك يسبحون. إننا أمام درس في العبودية الكونية؛ فالمخلوقات العظيمة لا تستكبر على حدها، ولا تخرج عن مدارها، ولا تطلب أن تكون غير ما قدر الله لها.

تبدأ الآية بالليل: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾

والتعبير بـ **نسلخ** تعبير بالغ القوة. كأن النهار لباس من نور يُنزع عن جسد الليل، فإذا الظلمة تظهر كامنة. وهذا التصوير يجعل تعاقب الليل والنهار مشهدًا حيًا، لا مجرد ظاهرة زمنية. فالنهار ليس شيئًا بديهيًا ثابتًا، بل نعمة تُكسى بها الأرض، ثم تُسْلَخ، فيعرف الإنسان أن النور ليس ملكًا له، وأن الظلمة قريبة، وأن حياته كلها قائمة على تناوب لا يملكه.

ثم تأتي الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾

الشمس، بما في حضورها من عظمة وسطوع وهيمنة على حياة الأرض، ليست إلهاً، ولا قوة سائبة، ولا مركزاً مستقلاً، بل مخلوق يجري. والجريان يدل على الحركة والخضوع معاً؛ فهي عظيمة في عين الإنسان، لكنها عبدة في نظام الخلق، لا تملك أن تقف حيث شاءت، ولا أن تجري كيف شاءت، بل لها مستقر وتقدير. وهنا يهدم القرآن كل فتنة كونية قد تجعل الإنسان يعبد الظواهر أو يخضع لها استقلالاً، فالعظيم في الخلق لا يخرج عن كونه مخلوقاً.

ثم تأتي الجملة الحاسمة: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

هذا النظام ليس صدفة متراكمة، ولا فوضى استقرت بلا قصد، بل تقدير. والتقدير يحتاج إلى علم، ويحتاج إلى قدرة، فجاء الاسمان: العزيز العليم. العزيز الذي لا يُغلب، العليم الذي لا يخفى عليه موضع ولا مسار ولا مقدار. فالكون ليس مضبوطاً لأنه قوي بذاته، بل لأنه قائم بتقدير العزيز العليم.

ثم القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

القمر ليس مجرد جرم مضيء في السماء، بل تقويم، وإيقاع، ومنازل، وتربية بصرية للإنسان على معنى التدرج والنقص والاكتمال. يبدأ هلالاً، ثم يكبر، ثم يكتمل، ثم يعود دقيقاً كالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. وكأن القمر يعلم الإنسان أن المخلوق لا يبقى على حال واحدة، وأن الاكتمال في الدنيا ليس خلوداً، وأن كل بدر له عودة إلى النحول، وأن الجمال نفسه خاضع للزمن.

وهذا المعنى يمس الإنسان مباشرة. كم يفرح الإنسان ببدر قوته، وبدر شبابه، وبدر جاهه، وبدر حضوره، ثم لا يلبث أن يعود كالْعُرْجون القديم. ولذلك سنقول السورة لاحقاً: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾. فكأن القمر يمهد للإنسان درس الشيخوخة، ويريه في السماء صورة مصغرة لما سيقع في جسده: اكتمال، ثم نقص، ثم رجوع إلى الضعف.

ثم تأتي آية الحدود: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾

هذه الآية ليست وصفاً فلكياً فقط، بل درس في الأدب الكوني. لكل مخلوق حد لا ينبغي له أن يتجاوزه. الشمس لا تدرك القمر، والليل لا يسبق النهار، وكل شيء يعمل داخل موضعه. ولو تأمل الإنسان هذه الآية لرأى فيها قانوناً أخلاقياً عظيماً: الفساد يبدأ حين يريد الشيء أن يخرج عن حده، حين يريد الإنسان أن يكون إلهاً صغيراً، حين يريد الهوى أن يحل محل الوحي، حين تريد القوة أن تتجاوز العدل، حين يريد الجسد أن يقود الروح، حين يريد اللسان أن يتكلم بلا مسؤولية، حين تريد الدنيا أن تبتلع الآخرة.

الكون مستقيم لأنه يعرف حدوده التي قدرها الله له، والإنسان يفسد لأنه يجهل حده أو يتجاهله. الشمس أعظم من الإنسان في الحجم والأثر، لكنها لا تعصي مسارها؛ والإنسان أضعف من أن يخلق ذبابة، ومع ذلك يجادل في ربه، ويخاصم في البعث، ويستكبر على السجود. أي مفارقة أعظم من كون عظيم منضبط، وإنسان صغير متمرّد؟

ثم تختتم الآيات: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

كلمة يسبحون تمنح الحركة معنى خضوعيًا جميلًا؛ فالكائنات لا تتحرك فقط، بل تسبح في أفلاكها، كما لو أن الوجود كله في صلاة كونية، كل مخلوق يؤدي عبوديته بطريقته التي خلقه الله عليها. وفي هذا المعنى يصبح الكون كله مسجدًا واسعًا، لا بمعنى تشبيه الخالق بخلقه، تعالى الله عن ذلك، بل بمعنى أن كل مخلوق دالٌّ على ربه، قائم بأمره، جارٍ في نظامه، شاهد على قدرته وحكمته.

وسورة يس حين تعرض هذا النظام تريد أن توقظ في الإنسان سؤالًا موجهًا: إذا كانت الشمس تجري لمستقر لها، والقمر مقدرًا منازل، والليل والنهار لا يتجاوزان حدودهما، فهل يليق بك أنت، أيها الإنسان المكلف، أن تعيش بلا صراط؟ هل يليق بك أن تكون أقل أدبًا مع الله من الشمس والقمر؟ هل يليق بالعقل الذي كرمه الله أن يخرج عن مدار العبودية، بينما الكون كله يسبح في مدار التسخير؟

إن الإنسان المستيقظ في سورة يس هو الذي يتعلم من الكون معنى الحد، ومن الحركة معنى الطاعة، ومن الزمن معنى المصير، ومن الشمس والقمر معنى أنه مخلوق له مدار، وأن كرامته ليست في الخروج عن العبودية، بل في أن يعرف طريقه إلى الله وهو مختار.

الفصل الثامن

الفلك المشحون: الإنسان المحمول بالرحمة وهو يظن أنه قائم بنفسه

بعد آيات الأرض والسماء، تنزل السورة إلى مشهد آخر من مشاهد التسخير:
(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤﴾)

هنا ينتقل القرآن من الأرض التي تطعم، والسماء التي تنظم الزمن، إلى وسائل الحمل والنجاة. والآية تذكر الإنسان بحقيقة يغفل عنها كثيرًا: أنه محمول. ليس قائمًا بنفسه كما يتوهم، ولا سيدًا مطلقًا على عناصر العالم، بل هو محمول برحمة الله في البر والبحر والجو، محمول في جسده، محمول في أنفاسه، محمول في أسباب النجاة التي يظنها من صنعه وحده.

(أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

الفلك المشحون صورة للإنسانية وهي تعبر الخطر. البحر في المخيال الإنساني رمز للاتساع والرغبة والمجهول، والسفينة قطعة محدودة تجري فوق عمق هائل، تحمل أرواحًا وأرزاقًا ومصائر. والقرآن يردّ هذا الحمل إلى الله: **حملنا**. فالخشب لا ينقذ بذاته، والمهارة لا تستقل بالحماية، والقوانين لا تعمل بمعزل عن إرادة الله. نعم، هناك صناعة وملاحة وحساب، ولكن وراء ذلك كله رحمة تحمل الإنسان على سطح الهاوية.

والفلك المشحون يذكر أيضاً بسفينة نوح عليه السلام، بما فيها من معنى النجاة الكبرى حين يطغى الماء، ويصير العالم كله شاهداً على أن النجاة ليست في الكثرة ولا في القوة، بل في الاستجابة لأمر الله. وهذا المعنى حاضر في سورة يس: من لم يركب فلك الهداية، فلن تنقذه أرض مألوفة ولا قوة اجتماعية. فالرسالة نفسها فلك، والقرآن فلك، والعبودية فلك، والتقوى فلك؛ من ركبها نجا، ومن استهزأ بها أدركه الطوفان بطريقة ما.

ثم يقول: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾

وهذه الآية توسّع معنى التسخير. فما يركبه الإنسان، وما يطروره من وسائل، وما ينتقل به عبر المسافات، كله داخل خلق الله وتمكينه. حتى ما يصنعه الإنسان من مركبات لا يخرج عن مواد خلقها الله، وعقل أعطاه الله، وسنن أودعها الله، وحاجة قدرها الله. فلا يجوز للإنسان أن يحوّل أدواته إلى غرور، لأن الأداة التي بين يده قائمة على نعم ليست منه.

وهنا نرى كيف يرَبِّي القرآن الوعي الحضاري. إنه لا يذم الركوب، ولا يذم الصناعة، ولا يدعو الإنسان إلى ترك الأسباب، ولكنه يمنع من تأليه الأسباب. يأمره أن يرى في المركب نعمة، وفي الانتقال تسخييراً، وفي النجاة رحمة، وفي التقنية امتحاناً للشكر لا ذريعة للكفر.

ثم تأتي الآية التي تكسر وهم السيطرة: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾

بكلمة واحدة: **نغرقهم**، ينهار كل وهم الإنسان عن حصانته المطلقة. البحر الذي يحمله يمكن أن يبتلعه، والوسيلة التي يطمئن إليها يمكن أن تصير

عاجزة، والصوت الذي يستغيث به قد لا يجد صريخًا، ولا منقذًا. وهذا ليس تخويفًا عبثيًا، بل إعادة الإنسان إلى حجمه الحقيقي. فالذي لا يعرف إمكانية الغرق لا يعرف قيمة النجاة، والذي لا يرى هشاشته لا يشكر الرحمة، والذي يظن نفسه قادرًا على كل شيء لا يفهم معنى **إِلا رَحْمَةً مِنَّا**.

ثم يأتي الاستثناء العظيم: **(إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)**

كل نجاة مؤجلة رحمة، وكل متاع محدود إلى حين، وكل عبور في الدنيا ليس خلودًا، بل إمهال. هذه العبارة تنقض أصل الغفلة؛ فالإنسان حين ينجو يظن أن النجاة دليل على استقلاله، بينما القرآن يقول: نجوت برحمة، ومُتَّعت إلى حين. أي أنك لا تملك النجاة، ولا تملك الحين، ولا تملك مدَّ المتاع، ولا تعرف متى ينتهي الإذن.

والكلمة الحاسمة هنا: **إلى حين**.

إنها توقيت خفي على كل نعمة. الصحة إلى حين، الشباب إلى حين، المال إلى حين، السفر إلى حين، السلامة إلى حين، العمر كله إلى حين. ومن عرف أن كل شيء إلى حين لم يسكن إلى الدنيا سكون المغتر، ولم يفرح بالوسيلة فرح الناس بآلهتهم الصغيرة، بل أخذها بشكر، واستعملها بطاعة، وظل قلبه معلقًا بمن بيده الملكوت.

ومن روعة موضع هذه الآيات أنها تأتي قبل مشاهد الإعراض والقيامة. كأن السورة تقول: أنتم محمولون بالرحمة، ومع ذلك تعرضون؛ منجون من الغرق، ومع ذلك تغفلون؛ ممدود لكم في المتاع، ومع ذلك تستعجلون اللهو وتؤخرون التوبة. أي حلم هذا الذي يحيط بالإنسان، وأي جرأة هذه التي تجعله

يأكل من النعمة، ويركب التسخير، وينجو من الخطر، ثم إذا قيل له اتق الله
أعرض؟

إن الإنسان المستيقظ لا ينتظر الغرق ليعرف الرحمة. هو يعرفها وهو على
ظهر السفينة، قبل أن تضرب الأمواج، وقبل أن ينقطع الصريخ، وقبل أن
يكتشف فجأة أن الأدوات التي بالغ في الثقة بها لا تنقذه إلا بإذن الله.

الفصل التاسع

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا: النَفْسَ الَّتِي تَهْرَبُ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْآخِرِيِّ

بعد هذا العرض الكوني والنعمي، تأتي السورة إلى مشهد النفس المعرضة:
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ
مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

هنا نرى أن المشكلة ليست في نقص الآيات. لقد مرت بهم آية الأرض الميتة، وآية الجنات والعيون، وآية الأزواج، وآية الليل والنهار، وآية الشمس والقمر، وآية الفلك المشحون. ومع ذلك، حين يقال لهم: اتقوا، يعرضون. فالإنسان لا يكفر دائماً لأنه لم يرَ، بل لأنه لا يريد أن يترتب على الرؤية التزام؛ ولا يعرض لأن الدليل ضعيف، بل لأن الدليل إذا قُبِلَ سيغيّر حياته.

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ)

هذه العبارة تجمع الزمن كله حول الإنسان. ما بين يديه وما خلفه: ما يستقبله وما مضى منه، ما أمامه من حساب ومصير، وما وراءه من ذنوب وآثار وتجارب وأمم أهلكته قبله. التقوى هنا ليست تصرفاً جزئياً، بل وعي زمني كامل: أن تعيش حاضرك وأنت ترى ماضيك ومصيرك، فلا تسجن نفسك في اللحظة العمياء.

الغافل يعيش في حاضر مقطوع؛ لا يتعلم من الخلف، ولا يستعد لما بين يديه. أما المتقي فهو الإنسان الذي يعيد وصل الزمن بالله: يرى الماضي عبر

العبرة، ويرى المستقبل عبر الحساب، ويرى الحاضر مجالاً للتدارك. ولذلك جاء التعليل: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. فالتحذير هنا رحمة، والتقوى باب الرحمة، والإنذار ليس قسوة، بل فرصة أخيرة كي لا يقع الإنسان في مصير لا رجعة منه.

ثم تكشف الآية التالية العلة العميقة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

الإعراض هنا صار عادة نفسية؛ كلما جاءت آية تحركت آية الصدّ. والآية من آيات ربهم، أي ليست شيئاً غريباً عنهم ولا عديم الصلة بهم، بل آية من الرب الذي خلقهم ورباهم وأنعم عليهم. ومع ذلك، يعرضون. وهذا من أسوأ أحوال النفس: أن تتحول علاقتها بالحق إلى إعراض تلقائي، فلا تحتاج إلى تفكير حتى ترفض، ولا إلى حجة حتى تنصرف، بل يكفي أن تأتي الآية حتى تتجه النفس بعيداً عنها.

ثم تعرض السورة صورة اجتماعية لهذا الإعراض: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

ما أعجب هذا المنطق. يؤمرون أن ينفقوا مما رزقهم الله، فيحتجون بمشيئة الله على ترك الرحمة. كأنهم يقولون: لو شاء الله لأطعم الفقير، فلماذا نطعمه نحن؟ وهذا من فساد الفهم حين ينفصل عن الإيمان. نعم، الله قادر أن يطعم من يشاء، لكنه ابتلاك بالنعمة، وابتلى غيرك بالحاجة، وجعل في مالك حقاً، وجعل الإنفاق طريقاً لتزكية قلبك قبل أن يكون مجرد سدّ حاجة الفقير.

إن الاحتجاج بالقدر لترك الواجب ليس إيمانًا بالقدر، بل هروب من التكليف. من عرف الله حقًا علم أن قدره لا يلغي أمره، وأن مشيئته لا تبطل مسؤولية العبد، وأن الله قد يرزق الفقير عن طريق يدك ليختبر قلبك: هل تتحول النعمة عندك إلى رحمة، أم إلى قسوة فلسفية باردة تتستر بفهم فاسد للمشئنة؟

واللافت أنهم يقولون للمؤمنين: **(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)**. أي انقلاب هذا؟ الذين يدعون إلى الإنفاق والرحمة صاروا في نظر القساة ضالين. وهذه سمة من سمات المجتمعات الغافلة: تعيد تسمية الأشياء؛ تجعل الرحمة سذاجة، والنصيحة إزعاجًا، والإيمان تخلفًا، والتقوى ضعفًا، والبخل عقلانية، والقسوة واقعية. فإذا فسدت البصيرة انقلب قاموس الإنسان، فصار يرى النور ظلمة، والظلمة نورًا.

ثم ينتقلون إلى الاستهزاء بالمصير: **(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)**

هذا السؤال لا يخرج من قلب باحث، بل من نفس مستهزئة. ليس مقصودهم أن يعرفوا موعد الوعد ليستعدوا، بل أن يؤخروا التصديق لأنه لم يقع بعد. وهنا تكشف السورة مرضًا عميقًا: الإنسان الغافل يتعامل مع تأخر العقوبة كأنه دليل على عدمها، ومع إمهال الله كأنه إلغاء للحساب، ومع طول الطريق كأنه سقوط للوعد. وهذا جهل بطبيعة الابتلاء؛ فالوعد الأخروي ليس خاضعًا لاستعجال الساعرين، ولا تتغير حقيقته لأنهم يريدون رؤيته الآن.

وتأتي الإجابة لا بذكر موعد تفصيلي، بل بمشهد مباغت:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٠﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

الصيحة الواحدة ترد على سؤالهم كله. لا يحتاج الوعد إلى ترتيبات يملكون مراقبتها، ولا إلى علامات على وفق هواهم. لحظة واحدة تكفي لانتهيار عالم كامل. وهم يخصمون، أي في جدلهم، وأسواقهم، وخصوماتهم، وانشغالهم، ومشاريعهم الصغيرة، إذ تأتي الصيحة فتقطع الحبل كله. لا وصية، ولا رجوع إلى الأهل، ولا فرصة لترتيب النهايات.

وهنا تبلغ سورة يس ذروة في تفكيك وهم التأجيل. الإنسان يؤخر التوبة لأنه يظن أن لديه وقتًا كافيًا، ويؤجل الإيمان العملي لأنه يظن أن النهاية ستعطيه إشعارًا مسبقًا، ويعيش كأن الموت سيستأذنه، وكأن القيامة ستدخل معه في تفاوض. فتأتي الآية لتقول: قد تنتهي الدنيا والإنسان في وسط جملة لم يكملها، وفي خصومة لم يحسمها، وفي تجارة لم يغلق حسابها، وفي بيت لم يرجع إليه.

إن الإنسان المستيقظ لا يعيش مذعورًا من الغيب، بل يعيش منضبطًا بحقيقته. يعرف أن الوقت أمانة، وأن الوعد حق، وأن الرحمة في الإنذار قبل الصيحة، لا في طلب مهلة بعد وقوعها. ولذلك كانت السورة رحيمة حين قالت: اتقوا قبل أن تقول: صيحة واحدة. فمن لم ينتفع بنداء التقوى قد توقظه الصيحة، لكنها توقظه حين لا ينفع الاستيقاظ.

الفصل العاشر

الصيحة الواحدة: انهيار عالم الغفلة في لحظة

قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

هنا تبلغ سورة يس منعطفًا حاسمًا؛ فقد كانت قبل ذلك تفتح للإنسان أبواب النظر: الرسالة، والتاريخ، والرجل المؤمن، والأرض الميتة، والجنات، والعيون، والأزواج، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفلك، والرحمة، والمتاع إلى حين. ثم لما أعرض المعرضون، واستهزأوا بالوعد، وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، لم تأتهم السورة بجدل طويل حول الموعد، بل نقلتهم إلى الحقيقة التي يهربون منها: إن الموعد لا يحتاج إلى أن تعرفوه حتى يكون حقًا، ولا يتوقف على استعدادكم حتى يقع، ولا ينتظر اكتمال مشاريعكم الصغيرة حتى يجيء.

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

هذه العبارة تهدم وهم المسافة الطويلة بين الإنسان والنهاية. كلمة واحدة: صيحة، ووصف واحد: واحدة. ليس الأمر سلسلة معقدة يستطيع الإنسان أن يفوضها، ولا كارثة متدرجة يمنحها عقله فرصة للتدارك، بل صيحة واحدة، حاسمة، خاطفة، كافية لإسقاط كل الأبنية التي احتوى بها الغافلون. ومن عظمة التعبير أن الصيحة ليست شيئًا تراه العين أولاً، بل شيئًا يفاجئ السمع؛

كأن الذين لم ينتفعوا بسماع الوحي، ولم يصغوا للإنذار، سيأتيهم صوت آخر، لا يدعوهم إلى التوبة، بل يأخذهم أخذًا.

وهنا يظهر الفرق بين صوت الوحي وصوت النهاية. صوت الوحي يأتيك لتستيقظ وأنت قادر على الاختيار، أما صوت الصيحة فيأتي حين تنتهي مرحلة الاختيار. صوت الوحي رحمة تفتح الباب، وصوت الصيحة قضاء يغلق الباب. من لم يسمع القرآن سماع حياة، سيسمع النهاية سماع انقطاع.

(تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

لم تقل الآية: تأخذهم وهم ساجدون، ولا وهم متأملون، ولا وهم يتوبون، بل وهم يخصمون؛ أي وهم في خصوماتهم، ومجادلاتهم، وأسواقهم، ومنازعاتهم، وانشغالاتهم الدنيوية. وهذا من أعظم ما تكشفه الآية عن طبيعة الغفلة: أن الإنسان قد تكون نهايته وهو في قلب ما كان يظنه مهمًا، فإذا به لا يساوي شيئًا أمام الصيحة. خصومة على مال، جدل على جاه، نزاع على حقير من الدنيا، تدافع في سوق المصالح، وإذا بالوجود كله يتغير في لحظة.

والقرآن لا يذم هنا كل خصومة بمعنى المطالبة بالحق، ولكنه يكشف حال قوم غرقوا في الدنيا حتى جاءتهم النهاية وهم داخل ضجيجها. فالمشكلة أن يعيش الإنسان بلا أفق أعلى، أن يملأ سمعه بخصومات الناس حتى لا يبقى فيه موضع لنداء الله، وأن يظن أن الحياة هي هذا الاشتباك اليومي بين المطالب، فإذا بالصوت الواحد يبتلع الأصوات كلها.

ثم تأتي الآية التي تقطع امتداد الإنسان في الدنيا: (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

التوصية آخر محاولة للإنسان أن يرتب ما بعده، والرجوع إلى الأهل آخر صورة للحنين الأرضي. لكن الصيحة تأتي فتقطع الاثنين: لا يستطيع أن يوصي، ولا أن يرجع. كأن القرآن يقول: ستأتي لحظة يسقط فيها سلطانك على مالك، وعلى بيتك، وعلى كلامك، وعلى جسدك، وعلى علاقتك بالناس. ستريد أن تقول شيئاً فلا تمهل، وستريد أن تعود فلا تستطيع، وستكتشف أن الدنيا التي كانت تبدو واسعة صارت أضيق من أن تمنحك جملة أخيرة.

وهنا تظهر رحمة الإنذار القرآني؛ فهو يقول لك هذا الآن، وأنت ما زلت تستطيع أن توصي بالحق قبل أن تعجز عن التوصية، وأن ترجع إلى أهلك بالهداية قبل أن تعجز عن الرجوع، وأن تصلح ما بينك وبين الله قبل أن تنتهي مهلة الإصلاح. إن القرآن لا يذكر العجز الأخير ليقطع الإنسان، بل ليوقطه قبل أن يصير العجز قدرًا لا مرد له.

في هذا الموضع من السورة يتضح أن الغفلة ليست مجرد نسيان، بل مقام خطير من سوء تقدير الزمن. الغافل لا يعرف قيمة اللحظة التي يملكها، لأنه يظن أن اللحظات القادمة مضمونة. ولذلك يؤجل التوبة، ويؤجل الإنفاق، ويؤجل الاعتذار، ويؤجل إصلاح أثره في الناس، ويؤجل عودته إلى القرآن، ويؤجل سجوده الداخلي، حتى تأتي لحظة لا تقبل التأجيل.

إن سورة يس تعلمنا أن الزمن ليس ملك الإنسان، بل أمانة متحركة نحو انتهاء معلوم عند الله. وكل يوم يمر عليك ليس رقمًا زائدًا في عمرك، بل ورقة تسقط من فرصتك. ومن لم يفهم هذا المعنى عاش كمن يبني بيتًا على حافة موجة، يجمّل الجدران، وينسى البحر.

الفصل الحادي عشر

من مرقدنا؟: دهشة البعث وانكشاف الوعد

بعد الصيحة التي تنهي عالم الغفلة، تأتي النفخة التي تفتح عالم البعث:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا
مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢﴾ إِنْ كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣﴾)

هنا لا تعود القيامة فكرة، بل مشهداً. السورة التي عرضت قبل قليل الأرض الميتة وهي تحيا، تعرض الآن الإنسان الميت وهو يخرج. لقد كان البعث مكتوباً في النبات، ثم صار واقعاً في الأجساد. كانت السنابل تشير، والآن القبور تفتح. كان الإنسان يرى المثل في الأرض، ثم صار هو نفسه داخل المثل الأكبر.

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)

نفخة واحدة تفتح باب الوجود الآخر. هذا التعبير يرّبي الإنسان على أن الكون كله محكوم بأمر الله، وأن العالم الذي يبدو ثابتاً ممتداً يمكن أن يتغير بأمر واحد. ليست القيامة نتيجة تطور طبيعي داخل الدنيا، بل انتقال بأمر الله من طور إلى طور، ومن غيب مؤجل إلى واقع مشهود.

ثم يقول: (فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)

كلمة ينسلون توحى بالخروج السريع المتتابع، كأن الأجساد التي طال رقادها في الأرض تتحرك فجأة في اتجاه واحد. لم يقل: إلى الحساب فقط، بل قال: إلى ربهم. هذه هي الحقيقة التي كانت الغفلة تحجبها: كل حركة في الوجود تنتهي إلى الله. الإنسان يخرج من القبر لا إلى فراغ، ولا إلى مجهول عبثي، بل إلى ربه، إلى من خلقه أول مرة، ورزقه، وأنذره، وأمهله، وكتب ما قدم وآثره، ثم أعاده ليواجه حقيقة ما كان يعمل.

وهنا تتغير علاقة الإنسان بجسده. هذا الجسد الذي كان يظنه نهاية ذاته، والذي ربما جعله أداة للهوى أو الكبر أو الظلم، يقوم الآن شاهداً على أن الموت لم يكن إلغاءً، بل انتقالاً. الأرض لم تملك أن تحتفظ به إذا جاء الأمر، والتراب لم يجعل عودته مستحيلة، والتحلل لم يخرج شيئاً عن علم الله. إن الذي خلق يعلم، والذي يعلم يقدر، والذي يقدر يعيد.

ثم تأتي صرخة الدهشة: (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدِنَا)

هذا السؤال ليس بحثاً عن معلومة، بل فزع الوعي حين يصطدم بالحقيقة التي كان ينكرها أو يغفل عنها. من بعثنا؟ سؤال متأخر جداً. كان ينبغي أن يسأل الإنسان في الدنيا: من خلقتني؟ من يرزقني؟ إلى أين أعود؟ ما معنى الوحي؟ ما مصير العمل؟ لكنه لم يسأل الأسئلة في وقتها، فلما بُعث سأل سؤالاً لم يعد ينقذه.

واللافت أنهم يسمون القبر مرقداً. والمرقد موضع نوم. وهذا لا يعني أن القبر نعيم لهم، بل يكشف الفارق الهائل بين ما كانوا فيه وما استقبلوه؛ فكأن ما قبل البعث، مهما اشتد، يبدو أمام هول الحضور كأنه رقاد. حين تنكشف القيامة،

تتغير مقاييس الإنسان كلها. ما كان يراه طويلاً يبدو قصيراً، وما كان يراه بعيداً صار حاضراً، وما كان يظنه نهاية صار بداية.

ثم تأتي الإجابة الكاشفة: **(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)**

ما أعمق حضور اسم **الرحمن** هنا. الوعد الذي كانوا يستهزئون به لم يكن صادراً عن قسوة، بل عن رحمة. الرحمن وعدهم بالبعث لأنه رحيم؛ أنذرهم به ليعدّوا له، لا ليباغتهم بلا بيان. والرسل صدقوا؛ لم يكونوا كاذبين، ولا أصحاب أوهام، ولا شعراء يصنعون الخيال، بل كانوا يصفون الحقيقة القادمة.

في هذه الجملة ينكشف التاريخ كله: صدق الوحي، وصدق الرسل، وكذب الغفلة. كل السخرية القديمة تسقط في لحظة. كل الجدل الذي كان يقول: متى هذا الوعد؟ ينتهي أمام جواب لا يمكن دفعه: هذا هو الوعد، وقد وقع. ومن أخطر ما في الآخرة أنها لا تأتي بحقائق جديدة لم يكن الإنسان قد سمع بها، بل تأتي بتصديق ما قيل له. ولذلك يكون الندم مضاعفاً؛ لأن القضية لم تكن غائبة تماماً، بل كانت مؤجلة، والإنسان هو الذي عامل المؤجل كأنه غير موجود.

ثم تختصر السورة الأمر مرة أخرى: **(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)**

من التفرق إلى الجمع، ومن القبور المتعددة إلى الحضور الواحد، ومن الأزمنة الطويلة إلى لحظة الإحضار. كلمة **لدينا** هنا تهز القلب؛ فليست المسألة مجرد بعث عام، بل حضور عند الله. كل إنسان كان يفر من هذا

الحضور بلهوه، وتأجيله، ومكابرتة، ولكنه سيحضر. ومن لم يحضر بقلبه في الدنيا بين يدي الله في الصلاة والخشية والذكر، سيحضر بجملته يوم القيامة حضورًا لا اختيار له فيه.

ثم تأتي قاعدة العدل: **(فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)**

القيامة ليست فوضى رعب، بل يوم عدل مطلق. لا تظلم نفس شيئًا؛ لا يزداد في سيئة لم تعملها، ولا ينقص من حسنة عملتها، ولا تضع نية صادقة، ولا يختفي أثر خفي. وهذا المعنى يجعل الخوف من القيامة خوفًا أخلاقيًا لا عبثيًا؛ فأنت لا تخاف ظلمًا، بل تخاف عدلًا يكشفك كما أنت. ومن كان يخاف العدل، فمشكلته ليست في العدل، بل في عمله.

(وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هنا تعود السورة إلى العمل، بعد أن كانت قد قالت: **(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)**. فالحياة ليست مشاعر عابرة، ولا ادعاءات، ولا أسماء، بل عمل. والعمل في القرآن ليس مجرد حركة الجوارح، بل اتجاه القلب المتجسد في السلوك. ولذلك لا يكفي أن يعرف الإنسان الحق إذا لم يعمل بمقتضاه، ولا أن يعجب بالقرآن إذا لم يخضع له، ولا أن يتأثر بالموت إذا لم يعدل حياته.

إن سورة يس في هذا المشهد تقيم الإنسان أمام الحقيقة الحاسمة: أنت ذاهب إلى ربك بعملك. لا بما تمنيت فقط، ولا بما قلت عن نفسك، ولا بما مدحك الناس به، ولا بما صنعت من صورة حولك، بل بما كنت تعمل. والقيامة يوم تنهار الصور، ويبقى العمل.

الفصل الثاني عشر

أصحاب الجنة: حين يصير اليقين نعيمًا

بعد مشهد البعث والحضور والعدل، تفتح سورة يس نافذة النعيم:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿١﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٢﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٣﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ)

هنا يتبدل الإيقاع. بعد الصيحة، والخروج من الأحداث، والحضور، والعدل، تأتي الجنة لا بوصفها تعويضًا ماديًا فحسب، بل بوصفها اكتمالًا للسلام الذي طلبه المؤمن في الدنيا ولم يجده كاملاً. أصحاب الجنة في شغل، لكن أي شغل؟ ليس شغل الخصومات التي أخذت الغافلين وهم يخصمون، بل شغل النعيم، والأنس، والرضا، والفاكهة، والظلال، والكرامة. كأن السورة تقابل بين شغلين: شغل أهل الدنيا الغافلة، وشغل أهل الجنة الفاكهين.

(فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ)

الشغل في الدنيا كثيرًا ما يكون تعبًا، وقلقًا، ومزاحمة، ومطالب لا تنتهي. أما هنا فهو شغل منزوع الكدر، شغل ممتلئ باللذة والطمأنينة. والفاكهون هم المسرورون المتلذذون، كأن النعيم بلغ درجة تشغلهم عن كل خوف مضى، وعن كل ألم سابق، وعن كل ذكرى قاسية. لقد شغلهم الله بالكرامة بعد أن شغلوا أنفسهم في الدنيا بطاعته وخشيته بالغيب.

ثم يقول: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾

الجنة هنا ليست فردانية باردة، بل أنس واجتماع وطمأنينة. هم وأزواجهم: المعنى لا يقتصر على لذة ذاتية معزولة، بل يشمل اكتمال القرب، وزوال الوحشة، وعودة العلاقات الصالحة إلى صفائها الأعلى. الظلال تشير إلى الراحة، والأرائك إلى الكرامة، والاتكاء إلى الأمن. فلا خوف يطردهم، ولا تعب يقيمهم، ولا اضطراب يمنعهم من السكون.

الإنسان في الدنيا قلما يتكى حقاً؛ جسده قد يتكى، لكن قلبه يظل واقفاً من القلق. أما في الجنة، فالاتكاء علامة أن الخوف انتهى، وأن الطلب استراح، وأن المصير استقر، وأن النفس خرجت من طور المطاردة إلى طور الرضا.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾

الفاكهة في القرآن ليست مجرد طعام، بل رمز للنعيم الذي يجمع اللذة والجمال والاختيار. ثم تأتي العبارة الأوسع: ﴿وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي ما يطلبون ويتمنون. وهذه من أوسع عبارات الكرامة؛ لأن الإنسان في الدنيا يعيش تحت سقف الحدود: يريد ولا يقدر، يطلب ولا يجد، يتمنى ولا يُعطى، يحصل على شيء ويفقد أشياء. أما هنا، فالرغبة نفسها تدخل في عالم الرضا، فلا تطلب إلا ما يليق بالنعيم، ولا تجد إلا عطاءً كريماً.

لكن ذروة النعيم ليست الفاكهة، ولا الأرائك، ولا الظلال، بل قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾

هذه الآية وحدها تكفي لأن تجعل كل نعيم قبلها كالمقدمة. السلام هنا ليس مجرد حالة نفسية، بل قول من رب رحيم. ومع الالتزام التام بتنزيه الله تعالى

عن مشابهة خلقه، فإن الآية تثبت ما أثبتته الله لنفسه من هذا القول الكريم على الوجه اللائق بجلاله، بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف. إنه سلام رباني يليق بكمال الله، يبلغ أهل الجنة على وجه يعلمه الله، فيكون أعظم من كل ما في الجنة من صور النعيم.

ولم كان السلام هو الذروة؟ لأن الإنسان في عمق روحه لا يبحث عن اللذة وحدها، بل عن الأمان النهائي. يريد أن يسمع، بمعنى يليق بالمقام، أن الخوف انتهى، وأن الرحمة أحاطت، وأن الرضا قد حل، وأنه لم يعد مطارداً بذنب، ولا مهدداً بفقد، ولا معرضاً لموت، ولا منتظراً لفراق. سلام: كلمة تنهي كل اضطراب. من رب رحيم: مصدرها الرحمة التي أنزلت القرآن، وأرسلت الرسل، وأنذرت بالغيب، وأمهلت الإنسان، ثم أكرمت من صدق.

وهنا نرى كيف تتصل آخر السورة بأولها؛ فقد بدأت بـ (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)، وها هي الجنة تبلغ ذروتها بـ (مَنْ رَبِّ رَحِيمٍ). فالرحمة حاضرة في التنزيل، وحاضرة في الإنذار، وحاضرة في النجاة، وحاضرة في النعيم. من رفض القرآن رفض رحمة، ومن اتبع الذكر دخل في رحمة، ومن خشي الرحمن بالغيب انتهى إلى سلام من رب رحيم.

إن أصحاب الجنة في سورة يس هم الذين فهموا معنى الحياة قبل الموت؛ لم ينتظروا أن تبعثهم الصيحة حتى يصدقوا، بل عاشوا في الدنيا بوعي الآخرة. ولذلك صار اليقين في الآخرة نعيماً. كل خشية صادقة تحولت أمناً، وكل صبر تحول راحة، وكل إنفاق تحول كرامة، وكل مقاومة للغفلة تحولت سلاماً.

الفصل الثالث عشر

وامتازوا اليوم أيها المجرمون: يوم تنفصل الحقائق عن الأفتعة

بعد مشهد النعيم، يأتي النداء القاطع: **(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ)**

هذه الآية قصيرة، لكنها من أشد آيات السورة رهبة. كلمة واحدة تفصل المصائر: **امتازوا**. في الدنيا كان الاختلاط ممكناً؛ المؤمن والمجرم في طريق واحد، وسوق واحد، ومدينة واحدة، وربما بيت واحد، وربما خطاب واحد يخفي ما تحته. في الدنيا تستطيع الأفتعة أن تعمل، وتستطيع المصالح أن تخط، وتستطيع الأسماء أن تلبس، وتستطيع الجموع أن تمنح الإنسان شعوراً كاذباً بالأمان. أما اليوم، فلا اختلاط، ولا قناع، ولا التباس.

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ)

اليوم الذي كان مؤجلاً صار حاضراً. والامتياز هنا ليس امتياز كرامة، بل انفصال إدانة. أي ابتعدوا، تميزوا، اخرجوا من اختلاطكم القديم، لم يعد لكم أن تختبئوا في صفوف الناس، ولا أن تتدنثوا بالجماعة، ولا أن تستعبروا وجوه الصالحين. كل إنسان يعود إلى حقيقته.

وهذه الآية تكشف أحد أخطر أوهام الدنيا: وهم الذوبان في الجماعة. كثير من الناس لا يختارون الحق بوعي، ولا يرفضونه بوعي، بل يعيشون ضمن تيار، ويتخففون من المسؤولية بالاختلاط: الناس يفعلون، المجتمع يريد، العادة جرت، السوق يحكم، العصر يفرض. فتأتي القيامة لتقول: امتازوا. لا

جماعة تنوب عنك في الحساب، ولا عصر يحمل ذنبك، ولا تيار يحجب حقيقتك. كنت فردًا في التكليف، وستكون فردًا في المواجهة.

ثم تأتي الآيات التي تعيد الإنسان إلى العهد الأول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

ما أعظم هذا النداء: يا بني آدم. ليست القضية قضية جماعة عابرة، بل قضية الإنسان منذ أصله الأول. سورة يس تعود بنا من مشهد القيامة إلى جذر القصة الإنسانية: العهد، والشيطان، والعبادة، والصراط، والعقل. كأنها تقول: لم يكن طريق النجاة غامضًا، ولم تكن العداوة مجهولة، ولم يكن الانحراف بلا تحذير. لقد قيل لكم منذ البداية: لا تعبدوا الشيطان، إنه لكم عدو مبين.

والعبادة هنا لا تنحصر في السجود الشعائري للشيطان، بل تشمل الطاعة والخضوع والاتباع فيما يدعو إليه من الكفر والمعصية والكبر والغفلة. فالإنسان قد لا يقول بلسانه إنه يعبد الشيطان، لكنه يطيعه حين يزين له الباطل، ويستجيب له حين يدعو به إلى الإعراض، ويتبعه حين يخرج من صراط الله إلى طرق الهوى. ولذلك كانت الآية صادمة؛ لأنها تسمي الأشياء بحقائقها لا بأسمائها المخففة. ما يسميه الإنسان حرية مطلقة قد يكون عبودية للهوى، وما يسميه ذكاء قد يكون استجابة للشيطان، وما يسميه واقعية قد يكون فرارًا من أمر الله.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

المشكلة أن الشيطان ليس عدوًا خفي العداوة في أصل البيان؛ لقد كُشفت عداوته. من العجب أن يحذر الله الإنسان من عدو، ثم يذهب الإنسان إليه طائعًا. ومن العجب أن يخاف الإنسان من عدو يهدد ماله أو جسده، ثم لا يخاف من عدو يهدد مصيره الأبدي. هذه الآية تعيد ترتيب معنى الخطر؛ ليست كل الأخطار فيما يفزع منه الحس، بل أخطرها ما يسحب القلب بعيدًا عن الله وهو يضحك.

ثم يأتي الأمر المقابل: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

هنا تعود السورة إلى كلمة الصراط التي بدأت بها: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الرسول على صراط مستقيم، والعبودية لله هي الصراط المستقيم. فالصراط ليس نظرية، بل عبادة؛ وليس مجرد اعتقاد ذهني، بل خضوع شامل لله. ومن أراد الطريق المستقيم فليبحث عنه في العبودية، لا في نزوات الفكر المتكبر، ولا في شهوات الجسد، ولا في وعود الشيطان.

ثم تأتي الإدانة العقلية: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

هذا السؤال في غاية القوة. بعد أن رأيت كثرة من أضلهم الشيطان، وبعد أن تكررت أمامكم مصائر الغافلين، وبعد أن عرفت أن العداوة مبينة، كيف لم تعقلوا؟ العقل هنا ليس مجرد قدرة تحليلية، بل وظيفة نجاة. العقل الحقيقي هو الذي يعرف العدو من الصديق، والطريق من الهاوية، والوعد الحق من الوعد الكاذب. أما الذكاء الذي يعين صاحبه على الدنيا ثم يتركه فريسة للشيطان، فليس عقلًا بالمعنى القرآني الكامل.

ثم يقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ۝ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

كما قيل قبلها: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، يقال هنا: هذه جهنم التي كنتم توعدون. الوعد والوعيد كلاهما صار حاضراً. الجنة ليست خيالاً، وجهنم ليست تهديداً خطابياً، بل واقع. ومن لم يؤمن بالغيب في الدنيا سيواجه الغيب وقد صار شهادة، ولكن الإيمان حينئذ لا يكون إيمان اختيار.

إن سورة يس في هذا الفصل تفصل بين طريقين: طريق من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، وطريق من عبد الشيطان واتبع عدوه. في الدنيا قد تختلط الطرق في الظاهر، لكن القيامة ترد كل طريق إلى نهايته. والإنسان المستيقظ هو من يرى النهاية وهو في البداية، فيمتاز عن الباطل قبل أن يقال له يوم القيامة: امتازوا.

الفصل الرابع عشر

ختم الأفواه وشهادة الجوارح: حين يتحول الجسد إلى وثيقة اعتراف

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

هذه الآية من أعمق آيات سورة يس في تفكيك وهم الإنسان عن نفسه. فالإنسان في الدنيا يظن أن اللسان هو سيد الرواية، وأنه يستطيع أن يبرر، ويعتذر، وينكر، ويجادل، ويعيد ترتيب الحكاية كما يشاء. اللسان في الدنيا أداة هائلة؛ به يقول الحق، وبه يقول الباطل، به يذكر الله، وبه يكذب، به يشهد، وبه يزور، به يبني، وبه يهدم. لكن يوم القيامة يأتي مشهد مزلزل: يُخْتَمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾

الختم هنا إسكات بعد طول كلام. كأن الإنسان الذي أكثر الجدل في الدنيا يُمنع فجأة من استعمال أداة الجدل. وهذا ليس ظلمًا له، بل عدلٌ يكشف أن الحقيقة لا تحتاج إلى لسانه حين صار لسانه موضع تلاعب. لقد أُعْطِيَ اللسان في الدنيا ليشهد بالحق، فلما استعمله في الإنكار والتزيين، جاء يوم تنطق فيه الأدلة التي لا يستطيع التحكم فيها.

ثم: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾

الأيدي التي بطشت، وكتبت، وأخذت، ومنعت، وأشارت، وسعت في الحلال أو الحرام، لم تكن مجرد أدوات صامتة. إنها محفوظة في علم الله، داخلية في سجل العمل. ستتکلم على الوجه الذي يريده الله ويليق بذلك اليوم، فتظهر حقيقة ما فعلت. اليد التي كان صاحبها يظن أنها تابعة له مطلقاً تصير شاهدة عليه إذا خان بها، أو شاهدة له إذا أطاع بها.

(وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

الأرجل تشهد على المسارات. إلى أين مشيت؟ في أي طريق بذلت خطاك؟ أي باب قصدت؟ أي مجلس سعيت إليه؟ أي مظلوم ذهبت لنصرته؟ أي معصية قطعت إليها الطريق؟ إن الإنسان ليس مسؤولاً عن أفعاله المنفصلة فقط، بل عن اتجاهاته. القدم ذاكرة الطريق، والجسد أرشيف الحركة، والله لا يضيع شيئاً.

هذه الآية تعيد تعريف الجسد في الوعي الإيماني. الجسد ليس ملكية مطلقة يتصرف فيها الإنسان كيف يشاء، بل أمانة. أعضاؤك ليست أدوات محايدة بلا مصير، بل شهود محتملون. عينك، يدك، قدمك، لسانك، كلها داخلية في معنى التكليف. ولذلك فإن الإيمان لا يبقى فكرة في القلب، بل يتحول إلى تهذيب للجوارح؛ لأن القلب إذا صدق تغيّرت مسارات الأعضاء.

ومن أعجب ما في الآية أنها تقول: **(بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**. الكسب يدل على أن الإنسان كان يضيف إلى نفسه أعمالاً، يجمعها كما يجمع المال، لكنها قد تكون عليه لا له. في الدنيا يفرح الإنسان بما كسب من مكاسب ظاهرة، أما في الآخرة فيظهر الكسب الحقيقي: ماذا كسب قلبك؟ ماذا كسبت يدك؟ ماذا كسبت قدمك؟ ماذا كسب لسانك؟ وهل كان كسبك نوراً أم ظلمة؟

إن ختم الأفواه ليس مجرد مشهد رعب، بل تربية عميقة على الصدق الآن. ما دمت تستطيع الكلام، فاجعل فمك شاهداً لك لا عليك. وما دامت يدك تتحرك، فاجعلها في طاعة، لا في ظلم. وما دامت رجلك تمشي، فاختر لها طريقاً لا تستحي منه يوم تشهد عليك. فالقيامة لا تفاجئ الإنسان بحقيقة لا أصل لها، بل تكشف ما كان يزرعه في جسده يوماً بعد يوم.

وهذا المشهد يتصل ببداية السورة: **(وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)**. فالله يكتب، والجوارح تشهد، والأفواه تُختم، والعمل يُحضر. كأن سورة يس تريد أن تنزع من الإنسان وهم الإفلات. لا شيء يضيع. لا أثر يذهب. لا خطوة بلا معنى. لا يد بلا سجل. لا فم بلا مسؤولية.

ثم تأتي الآيات بعدها لتذكر الإنسان بإمكان سلب هذه النعم في الدنيا قبل الآخرة: **(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) ٥ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)**

بعد شهادة الجوارح، يذكر الله الإنسان بأن هذه الجوارح نفسها ليست مضمونة له. لو شاء الله لطمس الأبصار، ولو شاء لمسحهم على مكانتهم، فلا يستطيعون مضياً ولا رجوعاً. البصر الذي به يعصي، والحركة التي بها يتمادي، والقدرة التي بها يظلم، كلها عطايا قابلة للسلب. فلماذا يغتر الإنسان بما لا يملكه؟ ولماذا يستعمل النعمة ضد المنعم؟ ولماذا يجعل عينه أداة غفلة، وقد كان يمكن أن تُطمس؟ ولماذا يجعل حركته طريقاً إلى الباطل، وقد كان يمكن أن تُسلب؟

(فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)

لو طُمست الأبصار، كيف يبصرون الطريق؟ وهذه العبارة تحمل معنى ظاهراً، ومعنى داخلياً: من فقد بصيرة الإيمان، كيف يعرف الصراط؟ قد تكون العين مفتوحة، لكن القلب مطموس. وقد يتحرك الإنسان كثيراً، لكنه لا يمضي في الحقيقة؛ لأن الحركة بلا هدى ليست تقدماً، بل دوران داخل التيه.

(فَمَا اسْتَبَاقُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

هذه صورة العجز الكامل: لا يستطيع أن يتقدم ولا أن يرجع. ومن لم يستعمل قدرته في الطاعة قد يعاقب بعجز يحرمه حتى من التدارك. وفي ذلك تربية على المسارعة: ما دمت تبصر فاستبصر، وما دمت تمشي فامش إلى الله، وما دمت قادراً فاستعمل قدرتك قبل أن تصير القدرة ذكرى.

إن الإنسان المستيقظ في سورة يس هو الذي يصلح جسده مع غايته؛ لا يجعل أعضائه جنوداً للهوى، بل شهوداً للعبودية. يعلم أن اليد التي تمتد إلى الخير اليوم ستشهد له، وأن القدم التي تمشي في طريق الحق ستشهد له، وأن اللسان الذي يذكر ويصدق ويصلح سيُكرم، وأن الفم الذي يكثر من الزور قد يأتي عليه يوم يختم عليه فلا يملك أن يدافع عن صاحبه.

وهنا يبلغ معنى السورة ذروة من التربية العملية: الإيمان ليس مجرد تصديق بالبعث، بل استعداد للجوارح أن تقف بين يدي الله بلا فضيحة.

الفصل الخامس عشر

ومن نَعْمَرِه نَنكسِه في الخلق: الشيخوخة بوصفها برهانًا على الفقر
الإنساني

قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

تأتي هذه الآية بعد مشاهد الطمس، والمسح، والعجز عن الماضي والرجوع، لتضع الإنسان أمام آية قريبة لا تحتاج إلى سفر في الآفاق، ولا إلى انتظار القيامة، ولا إلى تأمل طويل في الأرض والسماء؛ إنها آية العمر نفسه. فالإنسان يحمل البرهان في جسده، ويرى في أطوار حياته ما يكفيه لو عقل: يبدأ ضعيفًا، ثم يقوى، ثم يعود إلى الضعف، ويصعد في سلم القدرة حتى يظن أن القوة أصلٌ ثابت فيه، فإذا بالعمر يرده إلى هشاشته الأولى، ويكشف له أن ما سماه ملكًا لم يكن إلا عارية مؤقتة.

﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ﴾

العمر ليس امتدادًا يملكه الإنسان من ذاته، بل تعمير من الله. كل يوم يضاف إلى رصيدك ليس حقًا ذاتيًا انتزعت من الوجود، بل إذن إلهي بالبقاء، وفرصة جديدة، وحجة إضافية. ومن هنا يتغير معنى العمر في الوعي القرآني؛ ليس العمر مجرد زمن يمضي، بل أمانة تتراكم، وكلما طال عمر الإنسان طال معه سؤاله: ماذا صنعت بما مُدِّد لك فيه؟ هل صار امتدادك في الحياة امتدادًا في الرشد، أم امتدادًا في الغفلة؟ هل زادتك الأيام قربًا من الله، أم زادتك جرأة على التأجيل؟

ثم يقول: **(نُنَكِّسُهُ فِي الْخُلُقِ)**

التنكيس ليس موتاً مباشراً، بل عودة تدريجية من القوة إلى الضعف، ومن الاكتمال الظاهر إلى النقص، ومن القدرة إلى العجز، ومن الاستقلال المتوهم إلى الحاجة. الطفل يولد محتاجاً إلى من يحمله، والشيخ قد يعود محتاجاً إلى من يسنده. وبين الحاجتين يمشي الإنسان في زمن قصير يظن فيه أنه سيد نفسه. وهنا تكمن العبرة: أنت لم تكن قوياً من ذاتك، ولو كانت القوة ذاتية لما فارقتك، ولم تكن ذاكرة عقلك ملكاً مستقلاً لك، ولو كانت كذلك لما ضعفت، ولم يكن مشيك ولا بصرك ولا سمعك ولا قبض يدك من جوهر كالثابت، بل نعماً أعطيت، ثم قد تُنقص شيئاً فشيئاً.

إن الشيخوخة في القرآن ليست ظاهرة بيولوجية فحسب، بل موعظة وجودية. إنها تترجم للإنسان معنى الفقر إلى الله بلغة الجسد. كل تجعيدة تقول: الزمن ليس في يدك. كل ضعف يقول: قوتك لم تكن لك. كل بطء يقول: الخطوة التي كنت تغتر بها كانت نعمة. كل نسيان يقول: ذاكرتك ليست إلهاً صغيراً في داخلك. كل مرض يقول: البدن الذي بنيت عليه أوهامك قابل للانكسار.

ولذلك ختمت الآية بسؤال العقل: **(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)**

العقل هنا ليس تأملاً مجرداً، بل قراءة صحيحة لمسار الجسد. كيف يرى الإنسان نفسه ينتقل من طور إلى طور، ثم لا يعقل أنه مخلوق مدبّر؟ كيف يرى القوة تنبت ثم تذبل، والشباب يشرق ثم يأفل، والبدن يستقيم ثم ينحني، ثم لا يسأل عن الذي بيده هذه الأطوار؟ كيف يستنكر البعث وهو يرى أنه لم يكن شيئاً ثم صار، ثم صار قوياً بعد ضعف، ثم يعود ضعيفاً بعد قوة؟ أليست

القدرة التي نقلته من العدم إلى الوجود، ومن الطفولة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الشيخوخة، قادرة على أن تنقله من الموت إلى البعث؟

سورة يس تجعل الشيخوخة شاهداً على البعث من جهة، وشاهداً على ضرورة التوبة من جهة أخرى. فمن جهة البعث، فإن أطوار الإنسان تكشف أنه ليس كتلة جامدة، بل مخلوق تجري عليه قدرة الله في التحويل والتغيير؛ والذي يغير الخلق في الدنيا قادر على إعادته في الآخرة. ومن جهة التوبة، فإن التنكيس يقول للإنسان: لا تنتظر أن تبقى قدرتك كما هي؛ إن ما تستطيع فعله اليوم قد تعجز عنه غداً، وما تستطيع إصلاحه الآن قد يصير ثقيلاً عليك بعد حين، وما تستطيع كتابته، أو قوله، أو إنفاقه، أو الاعتذار عنه، أو تركه، قد يأتي زمن تبحث فيه عن القدرة فلا تجدها.

وهنا تظهر قسوة التأجيل. كثير من الناس لا يرفضون الحق رفضاً صريحاً، لكنهم يؤجلونه إلى نسخة مستقبلية من أنفسهم: سأهتدي حين أكبر، سأقرأ حين أفرغ، سأصلي كما ينبغي حين تستقر حياتي، سأكتب الحق حين أمتلك الوقت، سأترك المعصية حين تهدأ شهواتي. لكن سورة يس تضع أمامه قانوناً آخر: قد تكبر، ولكنك لا تزيد قدرة؛ قد تعمّر، ولكنك تُنكّس؛ قد تطول بك الحياة، لكن لا بطول القوة نفسها. فكيف تجعل توبتك مؤجلة إلى زمن قد تكون فيه أضعف مما أنت الآن؟

إن الشيخوخة ليست عاراً، بل آية. وليست نقصاً مهيناً للمؤمن، بل تذكير كريم إذا قرئ بنور الإيمان؛ إذ يزداد بها الإنسان معرفة بفقره، ويصفو بها من غرور القوة، ويعلم أن الرجوع إلى الله ليس فكرة للموتى فقط، بل حاجة الأحياء في كل طور. لكن الشيخوخة تصبح مأساة حين تأتي على قلب لم

يستيقظ، فتضيف إلى ضعف الجسد ضعف المعنى، وإلى انحناء الظهر انحناء الإرادة، وإلى نسيان الأسماء نسيان المصير.

ومن أرقى ما تفعله سورة يس هنا أنها لا تترك الإنسان ينظر إلى الهرم بعين الشفقة العابرة، بل بعين الاعتبار. كل شيخ تراه أمامك هو مستقبل محتمل لك إن مُدَّ لك في العمر، وكل ضعف تراه في غيرك رسالة مسبقة إليك، وكل جنازة تمر بك لا تقول لك فقط: ستموت، بل تقول لك أيضاً: إن لم تمت سريعاً فستضعف، وإن لم تؤخذ فجأة فستُردّ شيئاً فشيئاً، فاختر أن تصل إلى الله بقلب قد عرف الطريق قبل أن تثقل عليه الخطوات.

الفصل السادس عشر

وما علمناه الشعر: الفرق بين الوحي والزخرفة اللفظية

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِّیُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

بعد أن أقامت السورة براهين الوحي والبعث، وشهدت الأرض والسماء والجسد والزمن على الحقيقة، تعود لتقطع شبهة قديمة من شبهات المكذبين: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم شعر. وهذه الشبهة، في ظاهرها، تبدو اعترافاً بجمال القرآن وعلو أثره؛ لأنهم لم يستطيعوا إنكار سلطانه البياني، لكنهم أرادوا أن يفسروا هذا السلطان تفسيراً أرضياً، فيحشروا الوحي في خانة الشعر، حتى لا يضطروا إلى الإقرار بأنه تنزيل العزيز الرحيم.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾

النفي هنا ليس انتقاصاً من الشعر من حيث هو فنٌّ من فنون القول، فقد عرف العرب للشعر منزلته، وفي الشعر حكمة وجمال وبيان، لكن القرآن يقرر أن الوحي ليس شعراً، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلقَ هذا القرآن من مدرسة الخيال الشعري، ولا من تمرين البلغاء، ولا من صناعة الصور، بل تلقاه وحياً من الله. فالفرق بين القرآن والشعر ليس فرقاً في الدرجة فقط، كأن القرآن شعر أعلى، بل فرق في الحقيقة والمصدر والوظيفة. الشعر من إنتاج الإنسان، والقرآن كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. الشعر

قد يصدق وقد يكذب، وقد يهدي وقد يضل، وقد يعلو وقد يهبط، أما القرآن فذكر وهدى ونور وفرقان.

ثم يقول: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾

هذه العبارة تنفي الملاءمة من أصلها. ليس الشعر هو المقام الذي يليق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، لا لأنه دون البلاغة، بل لأنه جنس آخر لا يحمل وظيفة الوحي. النبي ليس شاعرًا يصوغ تجربة ذاتية، ولا صاحب خيال يطلب التأثير الجمالي، ولا فنانًا يستدر عواطف الجماهير، بل رسول على صراط مستقيم، يحمل تنزيل العزيز الرحيم، لينذر قومًا غافلين، ويبني إنسانًا حيًا، ويقيم حجة الله على العالمين.

وهنا ينبغي أن نقف عند قضية دقيقة: القرآن في أعلى درجات الجمال البياني، لكنه ليس جمالًا منفصلًا عن الحق. إن جمال القرآن ليس زخرفة، بل هداية متجلية في أحسن نظم؛ وليس إيقاعًا يبحث عن الطرب، بل إيقاع يوقظ القلب؛ وليس صورة خيالية ترقه النفس، بل صورة تكشف الغيب، وتثبت المعنى، وتربي الوجدان. ولذلك كان من الخطأ أن يُقرأ القرآن بمقياس الأدب وحده، كما لو كان نصًا عبقرياً داخل التراث اللغوي فقط؛ إنه فوق ذلك، وقبل ذلك، وبعد ذلك: وحي.

ثم يأتي التعريف الإلهي: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾

ذكر لأنه يردّ الإنسان إلى ما نسيه، ويوقظ فيه العهد، ويعيد وصل القلب بالحقيقة.

وقرآن مبين لأنه يُتلى، ويجمع، ويوضح، ويفصل، ويكشف الطريق.

الذكر يعني أن المشكلة في الإنسان ليست دائماً أنه لم يعرف شيئاً قط، بل أنه نسي، وغفل، وطُمس على بصيرته، وتراكمت عليه عادات ومصالح وشهوات جعلته بعيداً عن أصل فطرته. فيأتي القرآن لا ليضيف معلومة فحسب، بل ليوّظ الذاكرة الوجودية في الإنسان: من ربك؟ من خلقك؟ إلى أين تعود؟ من عدوك؟ ما طريقك؟ ما قيمة عملك؟ ما معنى الموت؟ ما حقيقة البعث؟

أما كونه قرآناً مبيّناً فمعناه أن البيان جزء من الرحمة. الله لم ينزل على الإنسان ألغازاً مغلقة، ولا إشارات عائمة، بل كتاباً يبين أصول النجاة، ويكشف مسارات الغواية، ويجعل الإنسان مسؤولاً لأنه قد بُيّن له. ومن هنا كانت حجة القرآن أعظم؛ لأنه لا يكتفي بالإخبار، بل يبين، ولا يكتفي بالتحذير، بل يفصل، ولا يكتفي بإثارة الخوف، بل يدل على الصراط المستقيم.

ثم تأتي الغاية: (لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا)

هذه من مفاتيح السورة الكبرى. القرآن ليس شعراً لأنه لا يخاطب الذوق وحده، بل يخاطب الحياة في الإنسان. ومعنى الآية ليس أن غير الحي جسدياً يُنذر، بل أن الذي ينتفع بالإنذار هو من بقي في قلبه حياة. قد يجلس أمام القرآن أناس كثيرون، لكن الذي يسمع حقاً هو الحي؛ الحي بخشية، الحي بسؤال المصير، الحي بتواضع القلب، الحي باستعداد الرجوع، الحي الذي إذا جاءت الآية لم يعرض عنها كما يعرض الميت عن الصوت.

وهنا نرى لماذا لا يصح اختزال القرآن في جماله اللغوي فقط. الجمال القرآني ليس نهاية المقصد، بل طريق إلى الإحياء. من وقف عند جمال العبارة ولم

يدخل إلى سلطان الهداية، فقد بقي على عتبة النص ولم يدخل محرابه. ومن أعجب بالإيقاع ولم يسجد قلبه للحق، فقد سمع شيئاً من الطلاوة، لكنه لم يذق سر الرسالة. فالقرآن لا يريد قارئاً معجباً فحسب، بل يريد إنساناً حياً.

ثم يقول: **(وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)**

فالقرآن يقوم بوظيفتين: إنذار الأحياء، وإقامة الحجة على المعرضين. هو حياة لمن فتح قلبه، وحجة على من أغلقه. وهذا معنى خطير؛ لأن القرب من القرآن ليس آمناً بذاته إن لم يتحول إلى اتباع. قد يسمع الإنسان القرآن فيزداد به هدى، وقد يسمعه فتزداد عليه الحجة لأنه لم يستجب. القرآن لا يمر بالإنسان بلا أثر: إما أن يرفعه، وإما أن يكشف إعراضه؛ إما أن يحييه، وإما أن يثبت موته الداخلي.

ومن هنا يتضح الفرق بين الوحي والزخرفة اللفظية. الزخرفة قد تُعجبك ثم تتركك كما أنت، أما الوحي فيطالبك أن تتغير. الشعر قد يفتح فيك إحساساً، أما القرآن فيفتح فيك مسؤولية. البيان البشري قد يصنع دهشة، أما القرآن فيصنع يقيناً، وخشية، وشكراً، وسجوداً، وموقفاً. ولذلك لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شاعراً، ولم يكن القرآن شعراً، لأنه لو كان شعراً لجاز للإنسان أن يكتفي بتذوقه، أما وهو ذكر وقرآن مبين فلا نجا إلا باتباعه.

الفصل السابع عشر

لَتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا: الحياة الحقيقية ليست مجرد نبض

قوله تعالى: ﴿لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾

يستحق أن يُفرد له فصل، لأنه يضع بين أيدينا واحدًا من أعمق تعريفات الحياة في القرآن. الحياة في ميزان الوحي ليست مجرد دقات قلب، ولا حركة جسد، ولا نشاط عقل في شؤون الدنيا؛ فقد يكون الإنسان حيًّا في سجلات الطب، ميتًا في ميزان الهداية، وقد يكون شديد الذكاء في إدارة مصالحه، فاقداً لأبسط حياة روحية تجعله يسمع نداء ربه.

القرآن لا ينكر الحياة الجسدية، لكنه يبين أنها ليست كافية وحدها. فكما أن الجسد يحتاج إلى طعام وماء وهواء، فإن القلب يحتاج إلى ذكر ووعي وخشية ويقين. وإذا حُرِمَ القلب غذاءه، صار الجسد كله كائنًا متحركًا بلا وجهة. ومن هنا نفهم لماذا جعلت سورة يس مركز الإنذار هو الحي: لأن الإنذار ليس مجرد صوت يدخل الأذن، بل معنى يحتاج إلى قلب يتلقاه.

الحياة الحقيقية في هذه الآية لها علامات.

أولها: قابلية التأثر بالحق.

فالحي إذا ذُكِّرَ تذكر، وإذا رأى آية لم يمر عليها كما تمر الأنعام على الحقول، وإذا سمع عن الموت لم يحوله إلى مناسبة عابرة، وإذا قيل له: اتق

الله، لم يبحث فوراً عن مخرج نفسي يحفظ كبريائه، بل سأل: أين أنا من هذا النداء؟

وثانيها: **الخوف من المصير قبل انكشافه.**

وهذا هو معنى قوله السابق: **(وَوَخَّشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ)**. فالحي هو الذي يرى الغيب حاضراً في ضميره وإن لم يره بعينه، ويعامل الآخرة كواقع مؤجل لا كفكرة بعيدة، ويعلم أن تأخر الوعد ليس نفيًا له، بل امتحان لصدقه.

وثالثها: **القدرة على الرجوع.**

الميت داخلياً قد يسمع ألف موعظة ولا يتحرك؛ لأن الكبرياء أغلق عليه. أما الحي فيرجع، ولو بعد خطأ، ويتوب، ولو بعد انكسار، ويستحي من الله، ولو بعد طول غفلة. ليست الحياة أن لا يذنب الإنسان أبداً، بل أن تبقى فيه قابلية التوبة. فإذا ماتت هذه القابلية، صار الذنب عنده عادة بلا ألم، وصارت الموعظة عنده صوتاً بلا معنى.

ورابعها: **الشكر.**

لذلك قالت السورة بعد عرض الجنات والعيون: **(أَفَلَا يَشْكُرُونَ)**. فالشكر دليل حياة؛ لأن القلب الميت يستهلك النعمة ولا يراها، أما القلب الحي فيرى وراء النعمة منعمًا، ووراء الطعام رحمة، ووراء الماء مدداً، ووراء الأرض الميتة قدرة على الإحياء.

وخامسها: **الخروج من أسر الاعتیاد.**

الميت داخلياً يقتل الآيات بالاعتیاد. يرى الشمس كل يوم فلا يتساءل، ويرى القمر فلا يعتبر، ويرى الشیخوخة فلا يتذكر، ويرى الجنازة فلا يستعد. أما

الحي فيعرف أن تكرر الآية لا يلغي دلالتها، بل يزيد الحجة بها؛ فالشمس التي تشرق كل يوم ليست أقل إعجازًا لأنها تشرق دائمًا، والأرض التي تنبت كل موسم ليست أقل دلالة لأنها اعتادت أن تنبت، والموت الذي يتكرر حولنا ليس أقل رهبة لأنه صار خبرًا مألوفًا.

إن سورة يس تريد أن تنتقل الإنسان من الحياة البيولوجية إلى الحياة الرسالية. فالإنسان الحي في منطق السورة لا يكتفي بأن يعيش، بل يعرف لماذا يعيش؛ لا يكتفي بأن يأكل من الحب، بل يشكر من أخرجه؛ لا يكتفي بأن يركب الفلك، بل يرى الرحمة التي حملته؛ لا يكتفي بأن يعجب بالنظام، بل يسبح الذي خلق الأزواج كلها؛ لا يكتفي بأن يسمع القرآن، بل يتبعه.

وهنا يظهر الفارق بين الإنسان الحي والإنسان الغافل. الغافل يتعامل مع الدنيا كأنها أصل، ومع الآخرة كأنها احتمال، أما الحي فيتعامل مع الدنيا كمهلة، ومع الآخرة كيقين. الغافل يرى الموت حادثة تقع للآخرين، أما الحي فيراه موعدًا شخصيًا يمشي نحوه. الغافل يؤجل لأن قلبه مخدر، أما الحي يبادر لأنه يعلم أن الصيحة لا تمنح توصية ولا رجوعًا إلى الأهل.

ولذلك كان القرآن نفسه معيارًا كاشفًا للحياة. حين تقرأ سورة يس، لا تسأل فقط: هل فهمت المعنى؟ بل اسأل: هل تحرك قلبي؟ هل اهتزت غفلي؟ هل رأيت الأرض بطريقة جديدة؟ هل صار الطعام في يدي آية؟ هل صار جسدي أمانة؟ هل صار الموت أقرب إلى وعيي؟ هل صار البعث أرسخ في يقيني؟ إذا حدث هذا، فقد أصابتك السورة بشيء من إحيائها. أما إذا خرجت منها كما دخلت، فالمشكلة ليست في السورة، بل في موضع الحياة داخلك.

إن قوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ ليس حكمًا قاسيًا على الناس بقدر ما هو دعوة إلى طلب الحياة. أي: كن حيًّا لتنتفع بالقرآن. افتح فيك موضع السمع، موضع الخشية، موضع الدهشة، موضع الشكر، موضع التوبة. لا تجعل قلبك أرضًا ميتة لا تقبل المطر، ولا تجعل كبرياءك سدًّا من بين يديك ومن خلفك، ولا تجعل لسانك يكثر الجدل حتى يأتي يوم يُختم عليه.

والعجيب أن السورة التي تقول: **لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا** هي نفسها التي تقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾. فكأنها تجمع بين معنيين: لا ينتفع بالإنذار إلا من كان حي القلب، ومع ذلك فإن الله قادر أن يحيي ما مات. وهذه نافذة رجاء عظيمة؛ فمن وجد في نفسه قسوة، أو غفلة، أو موتًا معنويًا، فلا ييأس، بل يعرض قلبه على القرآن، كما تُعرض الأرض الميتة على المطر، فلعل الله أن يخرج منها حبًّا، وجنات، وعيونًا، ومعاني لم يكن يظن أنها قابلة للإنبات.

الفصل الثامن عشر

الأنعام والتسخير: غفلة الامتلاك ووهم السيادة

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

بعد أن بيّنت السورة أن القرآن ذكرٌ وقرآن مبين، وأن غايته إنذار من كان حيًّا، تعود إلى آيات التسخير في الحياة اليومية؛ كأنها تقول: إن الحياة التي يُراد إيقاظها ليست معلقة في التجريد، بل تعيش بين نعم ملموسة ينبغي أن تُقرأ قراءة صحيحة. ومن أعظم هذه النعم: الأنعام.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾

مرة أخرى تعود السورة إلى فعل الرؤية. القضية ليست أن الآية غائبة، بل أن الرؤية معطلة. الأنعام أمامهم، يستعملونها، يركبونها، يأكلون منها، ينتفعون بألبانها وأوبارها وأشعارها وجلودها، ومع ذلك يحتاجون إلى أن يقال لهم: أولم يروا؟ وهذا يكشف أن الرؤية الحسية لا تكفي؛ فقد يكون الشيء أمام العين، لكن معناه غائب عن القلب.

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾

القرآن يرد النعمة إلى أصلها: الخلق. قبل الملك، وقبل التذليل، وقبل الركوب، وقبل الأكل، هناك خلق. الإنسان لا يبدأ من السوق، ولا من الحظيرة، ولا من

قدرته على الانتفاع، بل من فعل الله الذي أوجد هذه الكائنات وسخرها. وهذه العودة إلى الأصل ضرورية؛ لأن الغفلة تبدأ حين يتعامل الإنسان مع الموجودات كأنها معطيات جاهزة لا واهب لها.

ثم يقول: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَا﴾

هذه العبارة يجب أن تُفهم على ما يليق بجلال الله تعالى، بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف، مع الإيمان بما أثبتته الله لنفسه على الوجه الذي يليق به، وتنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. والمعنى هنا يقرر شرف الخلق ونسبته إلى قدرة الله وتدبيره، وأن هذه الأنعام ليست نتاجاً عشوائياً منفصلاً عن رب العالمين، بل من خلقه الذي امتن به على عباده.

﴿أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾

الملك هنا نعمة وامتحان. الإنسان يملك الأنعام من جهة التصرف المأذون فيه، لكنه ليس مالِكًا مطلقًا بالمعنى الحقيقي؛ لأن أصل وجودها ليس منه، وحياتها ليست بيده، وتسخيرها ليس من صنعه، وانتفاعه بها قائم على إذن الله. ولذلك فالملك في القرآن لا ينبغي أن يتحول إلى غرور، بل إلى شكر. كل ما تملكه هو في الحقيقة موضع اختبار: هل ترى يدك فوق النعمة، أم ترى فضل الله فوق يدك؟

ثم: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾

التدليل من أعجب آيات الرحمة. كم من حيوان أقوى من الإنسان بدناً، وأشد منه احتمالاً، وأكبر منه حجماً، ومع ذلك دلله الله له. فليست سيادة الإنسان في

الأرض قائمة على قوته المجردة، بل على تسخير الله. لو رُفِعَ هذا التذليل لحظة، لعجز الإنسان أمام كثير مما يظن أنه يملكه. فالأنعام في حقيقتها تذكير يومي بأن القوة ليست معيار السيادة وحدها، وأن العالم لا يخدم الإنسان لأنه أقوى مطلقًا، بل لأن الله ذلّل له.

(فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

الآية تجمع بين الحركة والغذاء. الأنعام تحمل الإنسان، وتغذيه. تقرب له المسافات، وتحفظ له البقاء. إنها تدخل في نظام العمران والمعاش والسفر والرزق. ومعنى هذا أن حياة الإنسان محاطة بتسخير من جهات كثيرة، وأنه ليس مستقلًا كما يظن؛ فهو في حاجته إلى الحيوان، كما هو في حاجته إلى النبات، والماء، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفلك. كلما ظن أنه سيد منفرد، ذكّرت سورة يس بأنه محمول، مطعوم، مسقى، مخدوم بنظام لم يصنعه.

ثم تقول: **(وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ)**

كثرة المنافع تدل على سعة الرحمة. فالنعمة الواحدة ليست ذات وجه واحد، بل وجوه متعددة. وهذا من دقة التدبير؛ أن يخلق الله شيئًا واحدًا فتنفّرع منه حاجات كثيرة، وأن يجعل في الأنعام ركوبًا وطعامًا وشرابًا ومنافع أخرى، فيتعلم الإنسان أن الرحمة ليست شحيحة، وأن الله يوسع عليه من أبواب لا يحصيها.

ثم تأتي الخاتمة التي تكررت في السورة: **(أَفَلَا يَشْكُرُونَ)**

الشكر هو الجواب الإنساني الصحيح على التسخير. فإذا لم يشكر الإنسان، تحولت النعمة إلى حجة عليه. وهنا يظهر معنى خطير: ليست المشكلة في أن يكون الإنسان منتفعًا بالدنيا، فالقرآن يقرّر المنافع والمشارب والركوب والأكل، ولكن المشكلة أن ينتفع بلا شكر، وأن يملك بلا تواضع، وأن يستهلك بلا معرفة، وأن يرى التسخير حقًا مكتسبًا لا فضلًا إلهيًا.

إن الحضارة الحديثة، مهما تطورت أدواتها، تقع في هذا الامتحان نفسه: هل تزيدها أدوات السيطرة شكرًا أم غرورًا؟ هل تجعلها ترى سعة التسخير فتزداد عبودية لله، أم تجعلها تتوهم أن الإنسان صار مركز الوجود بلا رب ولا حساب؟ سورة يس تقطع هذا الوهم من جذره: كل ما تركبه، كل ما تأكله، كل ما تنتفع به، كل ما تسميه ملكًا، هو داخل دائرة الخلق والتدليل والرزق.

ثم تأتي المفارقة الصادمة بعدها: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾
 ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾

بعد كل هذه النعم من الله، يتجه الإنسان إلى غير الله يطلب النصر. أي غفلة أعمق من أن يترك العبد من خلق وذل ورزق، ويتعلق بما لا يستطيع نصره؟ هنا تكشف السورة التناقض في النفس المشركة: تأكل من رزق الله، وتركب تسخير، وتعيش في كونه، ثم تجعل ولاءك وخوفك ورجاءك لغيره.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾

الآلهة الباطلة عاجزة؛ قد تمنح وهمًا نفسيًا، أو رمزية اجتماعية، أو قوة متخيلة، لكنها عند الحقيقة لا تنصر. وكل ما يُتخذ من دون الله، أيًا كانت صورته، إذا عُلق به القلب تعليق عبودية واستغناء، فهو خذلان مؤجل. قد

يكون صنماً حجريًّا، وقد يكون شهوة، وقد يكون سلطة، وقد يكون مألًّا، وقد يكون فكرة متكبرة، وقد يكون ذات الإنسان نفسها حين يعبد هواه. كل ذلك لا ينصر عند الصيحة، ولا عند القبر، ولا عند البعث، ولا عند ختم الأفواه.

ثم: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾

بدل أن تنصرهم ألتهم، صاروا هم جنودًا لها، محضرين في خدمتها والدفاع عنها. وهذا من انقلاب العبودية الباطلة: الإنسان يظن أنه يتخذ إلها لينتفع به، فإذا به يصير خادمًا لما اتخذ، مستنزفًا في الدفاع عنه، حاضرًا في صفه، مأسورًا له. هكذا تفعل كل عبودية لغير الله: تبدأ بوعد النصر، وتنتهي باستعباد صاحبها.

ثم يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

بعد كل هذا التكذيب والإعراض وسوء التقدير، تأتي تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم. لا يحزنك قولهم؛ فالأقوال الجارحة ليست آخر الحقيقة، والتكذيب ليس خارج علم الله، وما يسرون وما يعلنون كله معلوم. وهذا يعلم كل حامل حق ألا يجعل كلام الناس ميزان الحق، ولا جراح الدعوة نهاية الطريق. فالله يعلم السر والعلن، ويعلم دوافع المكذبيين، ويعلم صبر المرسلين، ويعلم ما تخفي الصدور خلف الأصوات المرتفعة.

وهكذا يجتمع في هذا الفصل معنى النعمة ومعنى الخذلان: من رأى الأنعام والتسخير فشكر، استيقظ؛ ومن رأى ذلك كله ثم اتخذ من دون الله آلهة، فقد انحدر من مقام الشكر إلى مقام العبودية الزائفة. وسورة يس لا تتركه في

الوهم: ما سوى الله لا ينصر، ومن لم يكن عبدًا لله صار جنديًا لما يعبد من دونه.

الفصل التاسع عشر

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه: أصل الشبهة في نسيان البداية

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

هنا تصل سورة يس إلى واحدة من أعظم لحظاتها في تفكيك بنية الإنكار. لم تعد القضية مجرد قوم غافلين، ولا أصحاب قرية مكذبين، ولا معرضين عن الآيات، بل الإنسان نفسه حين يتحول من مخلوق ضعيف إلى خصيم، ومن نطفة لا تملك لنفسها شيئاً إلى مجادل في قدرة خالقه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ﴾

مرة أخرى: الرؤية. لكن هذه المرة ليست رؤية الأرض، ولا الشمس، ولا القمر، ولا الأنعام، بل رؤية الإنسان لنفسه. كأن القرآن يقول له: إن كنت لا تريد النظر في الآفاق، فانظر في أصلك؛ وإن جادلت في الكون، فاقراً تاريخك الشخصي؛ وإن استبعدت البعث، فابدأ من السؤال الأول: كيف جئت أصلاً؟

﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾

النطفة هنا تردّ الإنسان إلى أصله المتواضع. لم يبدأ خصيماً، ولا سيّداً، ولا مفكراً، ولا مالِكاً، ولا متكلماً، بل بدأ نطفة. وهذا الأصل لا يذكره القرآن لإهانة الإنسان، بل لتحريره من الغرور. فإن كرامة الإنسان ليست في إنكار ضعفه الأول، بل في معرفة من رفعه منه. وحين ينسى الإنسان بدايته، يفسد

تقديره لنفسه، ويتوهم أن قدرته الحاضرة ذاتية، وأن عقله مستقل عن واهبه، وأن لسانه الذي يجادل به ليس نعمة من الله.

ثم تأتي المفاجأة: **(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)**

الفاء هنا تكشف سرعة التحول وعجب المفارقة: من نطفة إلى خصيم. والخصومة هنا ليست مجرد قدرة على الجدل، بل استعمال لهذه القدرة في معارضة الحق. الإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً صار يجادل في الذي خلقه، ويخاصم في بعثه، ويضرب الأمثال لله من حدود خياله. ما أعجب هذا الكائن: قوته نفسها التي وهبها الله له يستعملها أحياناً في إنكار قدرة الله.

(خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

مبين في خصومته، واضح في جداله، قادر على الإفصاح عن اعتراضه. وهذا يزيد الحجة عليه؛ لأن البيان الذي يملكه كان ينبغي أن يكون طريقاً إلى الشكر والاعتراف، لا آلة للمكابرة. والإنسان لا يضل لأنه ضعيف البيان دائماً، بل قد يضل ببيانه إذا لم يتواضع للحق. كم من لسان فصيح صار حجاباً على صاحبه، وكم من عقل جدلي صار أداة فرار من البديهيّات، وكم من قدرة على السؤال لم تتحول إلى طلب هدى، بل إلى صناعة شبهات.

ثم: **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ)**

هذه الجملة تختصر أصل الشبهة كلها: نسي خلقه. لم يقل فقط: جهل، بل نسي. لأن في أصل الإنسان ما يرد على سؤاله، لكن النسيان عطل الدليل. نسي أنه خلق بعد عدم، ونسي أن العدم أبعد في وهمه من إعادة العظام، ونسي

أن الذي أخرجه أول مرة قادر على أن يعيده، ونسي أن اعتراضه مبني على جزء من المشهد لا على المشهد كله.

نسي خلقه: هذه عبارة تصلح أن تكون مفتاحاً لفهم كثير من الانحرافات الفكرية. حين ينسى الإنسان أنه مخلوق، يضخم ذاته. حين ينسى أنه مربوب، يتصرف كأنه مرجع الوجود. حين ينسى أنه بدأ من ضعف، يسخر من الضعفاء. حين ينسى أنه سيموت، يطغى. حين ينسى أن عقله مخلوق محدود، يجعل حدوده ميزاناً لقدرة الله. وحين ينسى خلقه، لا يعود سؤاله بريئاً، بل يصبح سؤالاً صادراً عن ذاكرة معطلة.

ثم يأتي السؤال: **(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)**

السؤال في ظاهره يطلب الفاعل: من يحيي؟ لكنه في عمقه يستبعد الفعل: كيف تحيا العظام وقد صارت رميماً؟ إنه سؤال يقيس القدرة على حال المادة بعد موتها، لا على قدرة الخالق. وهذا هو الخلل المنهجي الأكبر: أن ينظر الإنسان إلى العظام وهي رميم، وينسى الذي أنشأها أول مرة. ينظر إلى النهاية المتحللة، ولا ينظر إلى البداية المعدومة. يرى الصعوبة في الرجوع، ولا يرى الإعجاز في الابتداء.

والقرآن لا يهرب من صورة العظام الرميم، بل يذكرها بوضوح. إنه لا يجمل الإشكال، ولا يخفف صورته. نعم، العظام تصير رميماً، والجسد يتحلل، والإنسان يغيب في التراب. لكن هل صعوبة المشهد على خيال الإنسان تعني صعوبته على قدرة الله؟ هنا يضع القرآن الحد الفاصل بين عقل متواضع وعقل متكبر: العقل المتواضع يرى أن عجزه عن تخيل الكيفية ليس دليلاً على امتناع القدرة، أما العقل المتكبر فيحوّل عجزه هو إلى قانون على الله.

ومن العجيب أن الإنسان نفسه، في حياته اليومية، يقبل أشياء كثيرة لا يحيط بسرّها، وينتفع بنظم لا يعرف أعماقها، ويعيش داخل جسد لا يدرك كل أسرارّه، ثم إذا جاء أمر البعث أراد أن يجعل خياله المحدود قاضيًا على قدرة الله. وهذا ليس طلبًا للمعرفة، بل نسيان للمرتبة: مرتبة الخالق ومرتبة المخلوق.

سورة يس في هذا الموضع تقف أمام الشبهة الإلحادية والإنكارية في أصلها العميق: المشكلة ليست فقط في السؤال عن العظام، بل في نسيان الخلق الأول. ولذلك فإن الرد القرآني لن يبدأ من العظام الرميم، بل من الإنشاء الأول؛ لأن من ثبت عنده الخلق الأول سهل عليه فهم إمكان الإعادة، ومن أنكر أو نسي البداية سيبقى متعثراً عند النهاية.

وهنا يظهر جمال الاقتصاد القرآني: لا يحتاج القرآن إلى صفحات طويلة ليرد على شبهة البعث، بل يكشف موضع الخلل في ثلاث كلمات: ونسي خلقه. لقد نسيت الدليل الذي تحمله في نفسك. نسيت أنك كنت أضعف من العظام الرميم؛ كنت عدماً من جهتك، ثم نطفة، ثم صرت خصيماً. فإذا كان الله قد أنشأ الخصيم من النطفة، فكيف يعجز عن إحياء العظام وهي رميم؟

الفصل العشرون

قل يحييها الذي أنشأها أول مرة: البرهان القرآني في أعلى درجات القوة

بعد السؤال المستنكر: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

يأتي الجواب القرآني: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

هذا من أعظم البراهين القرآنية في إيجازه وحسمه. لم يأت الجواب بتفصيل طويل في كيفية جمع الذرات، ولا في مراحل عودة الأجساد، ولا في شرح ما يغيب عن العقل من آليات القدرة، بل أعاد الإنسان إلى الأصل الذي لا يستطيع دفعه: الذي أنشأ أول مرة يحيي مرة أخرى. فإذا ثبت الإنشاء، لم تعد الإعادة مستحيلة؛ وإذا سلّم الإنسان بوجوده بعد أن لم يكن، فقد قام عليه الدليل من نفسه.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾

الجواب يبدأ بأمر للنبي صلى الله عليه وسلم: قل. وهذا يعني أن الشبهة لا تترك معلقة، وأن الوحي يعلم المؤمن كيف يجيب، لا بانفعال، ولا بتردد، بل بوضوح. إن الحق لا يخاف السؤال إذا كان السؤال يريد الحقيقة، بل يكشف له موضعه الصحيح. لكن القرآن لا يسمح للسؤال أن يفرض إطاراً خاطئاً؛ فالسائل ركز على العظام الرميم، والقرآن أعاد التركيز إلى المنشئ الأول.

﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

الإنشاء الأول هو مفتاح البرهان. والإنشاء أبلغ من مجرد التركيب، لأنه يدل على الإيجاد والابتداء والتقدير. فالذي أخرج العظام من نطفة، وشكل الجسد، وأقام الجهاز، وخلق السمع والبصر، وجعل القلب ينبض، والعقل يدرك، واللسان ينطق، قادر على أن يعيد ما تفرق.

بل إن الإعادة، في تصور العقل، أهون من الابتداء، مع أن الأمر كله على الله يسير، لا يلحق قدرته عجز ولا مشقة.

ثم تأتي الجملة التي تغلق باب الاعتراض من جهة العلم: **(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)**

قد يقول المعترض: الجسد تحلل، تفرق، صار ترابًا، دخل في الأرض، امتزج بغيره. فيأتي الجواب: **وهو بكل خلق عليم**. لا يضيع شيء في علم الله. لا تختلط الذرات عليه، ولا تغيب الأجساد في التراب عن إحاطته، ولا يصبح التحلل خروجًا من سلطانه. الذي خلق يعلم ما خلق، والذي يعلم لا يلتبس عليه شيء، والذي لا يلتبس عليه شيء لا يعجز عن الإعادة.

وهنا يتكامل في البرهان عنصران: القدرة والعلم.

الذي أنشأها أول مرة: إثبات القدرة.

وهو بكل خلق عليم: إثبات العلم المحيط.

فليست القضية قدرة عمياء، ولا علمًا بلا فعل، بل كمال القدرة مع كمال العلم. ومن اجتمع له الخلق والعلم، استحال في حقه العجز عن البعث.

ثم تزيد السورة البرهان بآية أخرى من آيات القدرة: **(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ)**

يا لجمال هذا الانتقال. من العظام الرميم إلى الشجر الأخضر. من الموت اليابس إلى الحياة الرطبة، ثم إلى النار الكامنة في موضع لا يتوقعه الحس. الشجر الأخضر، في ظاهره، رطوبة وحياة وبرودة، ومع ذلك يجعل الله منه نارًا. فالذي يخرج الضد من الضد، ويجعل في الأخضر نارًا، لا يعجز عن إخراج الحياة من العظام الرميم.

هذه الآية تربي العقل على ألا يسجن القدرة في توقعاته. الإنسان يتوقع النار من اليابس، لا من الأخضر؛ ويتوقع الحياة من الحي، لا من الميت؛ ويتوقع الحركة من القائم، لا من الرميم. لكن الله يريه في العالم أن قدرته لا تخضع لتوقع الإنسان. ما تستبعده من جهة مألوفك ليس مستبعدًا على الله. إن حدود عادتك ليست حدود القدرة.

ثم تقول السورة: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

هنا يوسع القرآن أفق البرهان مرة أخرى. بعد أن رد الإنسان إلى خلقه الأول، ثم إلى الشجر الأخضر، يرفعه إلى خلق السماوات والأرض. كأن السورة تقول: أنت تسأل عن عظام صغيرة، فانظر إلى السماوات والأرض. الذي خلق هذا البناء الهائل، أليس بقادر على أن يخلق مثلهم؟ فإذا كانت السماوات والأرض أعظم في الحس من الإنسان، فكيف يجعل الإنسان إعادة جسده أعظم من خلقهما؟

﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

بلى: جواب حاسم.

وهو الخالق: صيغة تدل على كثرة الخلق وكماله وسعته.

العليم: لا يخلق عن جهل، ولا يغيب عنه شيء مما خلق.

فالسورة تؤكد مرة أخرى أن البعث ليس مسألة منفصلة عن التوحيد. من عرف الله خلًافًا عليمًا لم يستغرب الإعادة، ومن ضعف توحيده استعظم ما لا يُستعظم على الله. إن شبهة البعث في عمقها شبهة في معرفة الله، لا في العظام فقط. ولذلك كان علاجها أن يُعرّف الإنسان بربه: المنشئ، العليم، الذي جعل من الشجر الأخضر نارًا، الذي خلق السماوات والأرض، الخالق العليم.

ثم تأتي الآية الجامعة التي تبلغ نهاية البرهان: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

هنا تنتهي كل الخصومات. الأمر الإلهي ليس محتاجًا إلى أدوات كما نحتاج، ولا إلى زمن كما نتصور، ولا إلى معالجة ومقايسة. إذا أراد شيئًا، قال له كن فيكون. وهذا القول والإرادة على الوجه اللائق بجلال الله، بلا تشبيه ولا تمثيل، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وأمره ليس كأمر المخلوقين، ولا قوله كقولهم، ولا إرادته كإرادتهم. الآية تقرر سلطانًا إلهيًا مطلقًا يليق برب العالمين.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾

هذه العبارة ليست مجرد جواب عن البعث، بل مفتاح لفهم الوجود كله. كل ما تراه قائمًا إنما قام بأمر الله. كل ما تستبعده يمكن أن يكون إذا أَرَادَ الله. كل ما تظنه صعبًا إنما تقيسه على قدرتك، لا على أمر الله. ولذلك فإن المؤمن

حين يقرأ هذه الآية لا يقرأها ليحل لغزاً فكرياً فقط، بل ليصح ميزان قلبه. لا يجعل العالم أكبر من الله في تصوره، ولا يجعل الموت أقوى من أمر الله، ولا يجعل التراب نهاية أمام كن فيكون.

وهنا تكتمل هندسة السورة:

بدأت بالقرآن الحكيم، ثم عرضت الغفلة، ثم الرسالة، ثم الآيات، ثم القيامة، ثم الجنة والنار، ثم الجوارح، ثم الشيوخوخة، ثم نفت عن القرآن كونه شعراً، ثم عادت إلى أصل الإنكار: نسيان الخلق الأول، ثم جاءت بالبرهان الحاسم: الذي بدأ يعيد، والذي خلق يعلم، والذي أخرج النار من الشجر الأخضر، وخلق السماوات والأرض، أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

إن سورة يس لا تترك للإنسان ملجأً من اليقين إلا المكابرة. فإن أراد أن يرى، فكل شيء حوله يقول له: الله قادر. وإن أراد أن يسمع، فالقرآن الحكيم يناديه. وإن أراد أن يعتبر، فالأرض الميتة والشيوخوخة والعظام والشجر الأخضر كلها أمامه. وإن أراد أن ينجو، فالطريق واضح: اتبع الذكر، واخش الرحمن بالغيب، واعبد الله وحده، ولا تتبع الشيطان، واعلم أنك إليه ترجع.

الفصل الحادي والعشرون

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء: نهاية السورة وبداية اليقين

تختم سورة يس بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

هذه الخاتمة ليست مجرد نهاية لفظية للسورة، بل هي القفل الذي يجمع مفاتيحها كلها. بعد أن عرضت السورة الوحي، والرسالة، والغفلة، والقرية، والرجل المؤمن، والأرض الميتة، والجنات، والعيون، والأزواج، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفلك، والأنعام، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، وختم الأفواه، وشهادة الجوارح، والشيخوخة، والشعر، والعظام الرميم، والشجر الأخضر، وخلق السماوات والأرض، والأمر الإلهي، تأتي الخاتمة لتقول: إذا فهمت كل هذا، فسبح.

﴿فَسُبْحَانَ﴾

التسبيح هنا هو الجواب النهائي للمعرفة. ليس مجرد لفظ يقال باللسان، مع عظم الذكر باللسان، بل تنزيه القلب والعقل لله عن كل نقص، وعن كل عجز، وعن كل مشابهة، وعن كل تصور يحد قدرته أو يقيسه على خلقه. كل شبهة في السورة كانت ناشئة من ضعف التسبيح: من ظن أن الله لا يحيي العظام وهي رميم، لم يسبح الله حق التسبيح؛ ومن ظن أن الآلهة الباطلة تنصر، لم يسبح الله حق التسبيح؛ ومن عبد الشيطان، لم يعرف مقام ربه؛ ومن جعل

القرآن شعراً، لم يقدر الوحي؛ ومن غفل عن الآيات، لم ينزّه الخالق عن العبث.

التسبيح يعيد ترتيب الوعي كله.

الله منزّه عن العجز، إذن البعث حق.

منزّه عن العبث، إذن الخلق له غاية.

منزّه عن الظلم، إذن الحساب عدل.

منزّه عن النسيان، إذن الأعمال والآثار محفوظة.

منزّه عن الحاجة، إذن العبادة نفعها عائد إلى العبد.

منزّه عن مشابهة الخلق، إذن كل ما ورد في كتابه يثبت على الوجه اللائق

بجلاله بلا تشبيه ولا تمثيل.

ثم: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

هذه العبارة تنزع الملكية المطلقة من كل أحد سوى الله. الملكوت أعمق من ظاهر الملك؛ إنه السلطان الباطن والحقيقة الكاملة للسيادة. كل شيء بيده سبحانه، على المعنى اللائق بجلاله، بلا تشبيه ولا تكييف. بيده ملكوت الأرض التي أحيّاها، وملكوت الحب الذي أخرجها، وملكوت الجنات والعيون، وملكوت الأزواج كلها، وملكوت الليل والنهار، وملكوت الشمس والقمر، وملكوت الفلك والبحار، وملكوت الأنعام، وملكوت الجسد والجوارح، وملكوت القبور، وملكوت العظام الرميم، وملكوت الجنة والنار، وملكوت الصيحة والبعث والحساب.

إذا كان ملكوت كل شيء بيده، فلا شيء يخرج عن قدرته، ولا شيء يغيب عن علمه، ولا شيء يستقل عنه. وهذا هو التوحيد في أوسع صورته: أن يرى

الإنسان العالم كله داخل سلطان الله، لا بوصفه فكرة عقدية مجردة، بل بوصفه حقيقة تفسر كل ما مر في السورة. لماذا تحيا الأرض؟ لأن ملكوتها بيده. لماذا تجري الشمس؟ لأن ملكوتها بيده. لماذا تُبعث العظام؟ لأن ملكوتها بيده. لماذا تشهد الجوارح؟ لأن ملكوتها بيده. لماذا لا تنصر الآلهة الباطلة؟ لأن الملكوت ليس لها.

وهنا ينهار وهم الإنسان عن السيادة. أنت لا تملك نفسك ملكًا مطلقًا، ولا جسدك، ولا عمرك، ولا صوتك، ولا أهلك، ولا مالك، ولا أثرك. أنت مؤتمن داخل ملك الله. وكلما اتسع في قلبك معنى الملكوت، ضاق فيه الكبر. لأن الكبر لا يعيش إلا في قلب نسي أن كل شيء بيد الله.

ثم تأتي الجملة الأخيرة: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾

هذه هي نهاية الطريق، بل هي الطريق كله. السورة منذ مطلعها كانت تمضي إلى هذه الجملة. القرآن الحكيم جاء ليقول لك: أنت راجع. الرسول على صراط مستقيم ليقودك في طريق الرجوع. الإنذار جاء لأنك راجع. الغفلة خطيرة لأنك راجع. الرجل المؤمن قال لقومه: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾، وها هي السورة تختم بالمعنى نفسه: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾. كأن العبارة التي قالها المؤمن من أقصى المدينة صارت خاتمة السورة كلها؛ لأن هذا هو وعي المؤمن: أن كل شيء يبدأ من الله وينتهي إليه.

والرجوع إلى الله ليس رجوع انتقال مكاني بمعنى يليق بالمخلوقات، تعالى الله عن ذلك، بل رجوع حساب ومصير ووقوف بين يديه على الوجه الذي أخبر به، رجوع من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، من الغيب إلى الشهادة، من المهلة إلى المواجهة، من العمل إلى الثمرة، من الدعوى إلى الحقيقة.

إن أخطر ما في الغفلة أنها تنسي الإنسان الرجوع. تجعله يظن أنه يمضي إلى مشاريعه فقط، إلى بيته، إلى سوقه، إلى خصومته، إلى لذته، إلى شيخوخته، إلى قبر بعيد. لكن سورة يس تقول: كل هذه محطات، أما الاتجاه النهائي فهو: **إليه ترجعون**. فمن أدرك هذا عاش بطريقة أخرى. يأكل بطريقة أخرى، ويكتب بطريقة أخرى، ويخاصم بطريقة أخرى، ويحب بطريقة أخرى، ويخاف بطريقة أخرى، ويستعمل جسده بطريقة أخرى، ويقرأ القرآن بطريقة أخرى.

هنا يكتمل بناء الإنسان المستيقظ.

إنه إنسان يعرف أن القرآن حكيم، وأن الرسول على صراط مستقيم، وأن الغفلة موت، وأن الآيات محيطة به، وأن النعمة تستدعي الشكر، وأن الشيطان عدو مبين، وأن الجسد سيشهد، وأن العمر ينقلب، وأن الموت ليس نهاية، وأن البعث حق، وأن الله يحيي العظام وهي رميم، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وأن ملكوت كل شيء بيده، وأن الرجوع إليه لا مهرب منه.

هذه هي هندسة الإحياء في سورة يس:

أن توقظ الإنسان من غفلة الحس إلى يقين الوحي، ومن استهلاك النعمة إلى شكر المنعم، ومن الاعتياد على الكون إلى قراءة الآيات، ومن وهم الحياة إلى حقيقة البعث، ومن الخصومة إلى التسبيح، ومن التفرق في الدنيا إلى الرجوع إلى الله.

ولهذا لا ينبغي أن تُقرأ سورة يس عند الموتى فقط، بل ينبغي أن تُقرأ على الأحياء كي لا يموتوا قبل موتهم. تقرأ على قلب غافل فيستيقظ، وعلى عقل

متكبر فيتواضع، وعلى جسد مستعمل في غير غايته فيتذكر أنه سيشهد، وعلى إنسان يؤجل التوبة فيسمع الصيحة قبل أن تأتي، وعلى كاتب يخشى أثر كلمته فيتذكر: **(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)**.

إنها سورة تقول للإنسان في كل مقطع: استيقظ.
استيقظ للقرآن الحكيم.

استيقظ للرسول الذي على صراط مستقيم.

استيقظ للأرض الميتة وهي تحيا.

استيقظ للشمس والقمر وهما يجريان بقدر.

استيقظ للنعمة قبل أن تتحول حجة عليك.

استيقظ لجسدك قبل أن يشهد.

استيقظ لعظمك قبل أن يصير رميمًا.

استيقظ للملكوت قبل أن تنكشف الحجب.

استيقظ للرجوع قبل أن تُرجع.

وبذلك تصبح خاتمة السورة ليست إغلاقًا، بل فتحًا لبداية اليقين:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

الخاتمة الكبرى

سورة يس: من الغفلة إلى الملكوت

حين نبلغ خاتمة سورة يس، لا نشعر أننا خرجنا من سورة قصيرة الآيات، بل كأننا خرجنا من رحلة كونية كاملة، بدأت من الحرف الغامض المهيّب: (يس)، ثم وقفت بنا عند القرآن الحكيم، والرسول الأمين، والصراط المستقيم، والتنزيل الصادر عن العزة والرحمة، ثم أنزلتنا إلى أعماق النفس الغافلة، ورأينا فيها الأغلال، والسدود، والحجب، ثم فتحت لنا مشهد القرية، والمرسلين، والرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ثم نقلتنا إلى الأرض الميتة وهي تحيا، وإلى الحبّ وهو يخرج من رحم التراب، وإلى النخيل والأعناب والعيون، وإلى الأزواج كلها، وإلى الليل وهو يُسلخ منه النهار، وإلى الشمس وهي تجري لمستقر لها، وإلى القمر وهو يتقلب في منازل حتى يعود كالعرجون القديم، وإلى الفلك المشحون وهو يحمل الإنسان على ظهر الخطر، وإلى الأنعام وهي مذلة للركوب والأكل والمنافع، ثم وقفت بنا فجأة أمام الصيحة، والبعث، والخروج من الأجداث، والجنة، وجهنم، وختم الأفواه، وشهادة الجوارح، والشيخوخة، ونفي الشعر عن مقام الوحي، ثم بلغت بنا إلى العظام الرميم، والشجر الأخضر، وخلق السماوات والأرض، وكن فيكون، حتى ختمت هذا كله بالتسبيح والملكوت والرجوع.

إن هذه السورة لا تعطي الإنسان فكرة واحدة، بل تعيد بناء جهاز إدراكه كله.

إنها تريد أن تنزع منه غفلة الاعتياد، تلك الغفلة التي تجعله يمر على الآيات كما لو كانت أشياء صامتة، ويأكل من الحبّ كأنه مجرد طعام، ويركب الفلك كأن النجاة حقّ طبيعي، ويملك الأنعام كأن الملك استقلال، ويرى الليل والنهار كأن تعاقبهما أمر بلا دلالة، ويشيخ أمام نفسه والناس كأن الضعف حادث منفصل عن معنى الوجود، ثم إذا ذُكِّر بالبعث قال: **(مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)**.

سورة يس تكشف أن المشكلة الكبرى ليست في قلة الأدلة، بل في موت القراءة.

فالآيات كثيرة، ماثلة في الوحي، وفي التاريخ، وفي النفس، وفي الأرض، وفي السماء، وفي النبات، وفي الحيوان، وفي الجسد، وفي الزمن، وفي الموت، وفي أطوار العمر، ولكن القلب إذا غفل لم تعد الكثرة نافعة؛ لأن الغافل لا يحتاج إلى آية جديدة بقدر ما يحتاج إلى حياة جديدة يرى بها الآيات القديمة. ولذلك قالت السورة في موضعها الحاسم:

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا)

فليست الحياة هنا مجرد حياة اللحم والدم، بل حياة التلقي، حياة الخشية، حياة الانتباه، حياة القلب الذي إذا سمع الوحي أحس أن الكلام يخصّه، وإذا رأى الموت عرف أنه موعده، وإذا رأى النعمة استحيا من المنعم، وإذا رأى العالم قرأه بوصفه كتابًا مفتوحًا يدل على الله، وإذا نظر في نفسه لم يغتر بخصومته وبيانه، بل تذكر أنه كان نطفة، وأن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده مرة أخرى.

من هنا يمكن أن نقول إن سورة يس هي سورة الإحياء بمعناه الواسع؛ فهي لا تتحدث عن إحياء الموتى في الآخرة فقط، بل تتحدث عن إحياء الإنسان قبل أن يموت، وعن إحياء الوعي قبل أن يُخلق عليه القبر، وعن إحياء الشكر قبل أن تتحول النعمة إلى حجة، وعن إحياء المسؤولية قبل أن تُختم الأفواه وتنطق الجوارح، وعن إحياء العقل قبل أن يقول يوم القيامة: يا ويلنا، وعن إحياء الذاكرة قبل أن يقال له: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ).

ولعل سر السورة أنها لا تسمح للإنسان أن يهرب من الحقيقة إلى جهة من الجهات؛ فإن هرب من الوحي، وجد الكون شاهداً؛ وإن هرب من الكون، وجد التاريخ ناطقاً؛ وإن هرب من التاريخ، وجد جسده حجة؛ وإن هرب من جسده، وجد عمره ينكسه؛ وإن هرب من العمر، وجد الموت أمامه؛ وإن هرب من الموت، وجد البعث ينتظره؛ وإن جادل في البعث، وجد خلقه الأول يرد عليه؛ وإن نسي خلقه، وجد القرآن يقول له: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ).

إنها سورة تطارد الغفلة لا لتخفق الإنسان، بل لتوقظه؛ ولا لتكسره، بل لترده إلى رشده؛ ولا لتجعله يعيش مذعوراً، بل ليعيش صادقاً. فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يفزع من الآخرة فرعاً مشلولاً، بل أن يستعد لها استعداد العاقل؛ ولا يريد منه أن يحتقر الدنيا، بل أن يراها على حقيقتها: ممرّاً، ونعمة، واختباراً، وساحة أثر، وميدان شكر، لا وطناً نهائياً يذوب فيه وينسى الرجوع.

والعبارة التي تتكرر في روح السورة كلها هي: **إليه ترجعون.**

قالها الرجل المؤمن من أقصى المدينة في وسط دعوته لقومه: ﴿وَمَا لِي لَا
أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ثم ختمت بها السورة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

كأن بداية الاستيقاظ ونهاية البرهان تلتقيان في حقيقة واحدة: أنت راجع إلى الله. وما دمت راجعاً إليه، فلا ينبغي أن تعيش كأنك لا ترجع؛ ولا أن تتكلم كأن فمك لن يُختم؛ ولا أن تمشي كأن قدمك لن تشهد؛ ولا أن تكتب كأن أترك لن يُحصى؛ ولا أن تأكل كأن الحب لم يخرج بقدرة الله؛ ولا أن تملك كأن ما في يدك ليس عارية؛ ولا أن تشيخ كأن ضعفك ليس رسالة؛ ولا أن ترى القبور كأنها نهاية لا باب.

هذه الحقيقة وحدها كافية لتعيد ترتيب الإنسان كله.

فمن عرف أنه راجع إلى الله تغيّرت علاقته بالقرآن؛ لم يعد يقرأه للثقافة، ولا للزينة، ولا للبلاغة وحدها، بل يقرأه ككتاب نجاة.

ومن عرف أنه راجع إلى الله تغيّرت علاقته بالكون؛ لم يعد يرى الأرض والشمس والقمر والليل والنهار مظاهر جامدة، بل آيات متحركة.

ومن عرف أنه راجع إلى الله تغيّرت علاقته بجسده؛ لم يعد يستعمل عينه ويده وقدمه ولسانه كأنها أدوات بلا حساب، بل كإمانات ستشهد.

ومن عرف أنه راجع إلى الله تغيّرت علاقته بالناس؛ صار أرحم، وأصدق، وأخفّ ظلمًا، وأشدّ حذرًا من أن يترك أثرًا سيئًا بعده.

ومن عرف أنه راجع إلى الله تَغَيَّرَتْ علاقته بالزمن؛ لم يعد يؤجل التوبة إلى غدٍ مجهول، لأن السورة علَّمتُه أن الصيحة لا تمنح توصية، ولا رجوعًا إلى الأهل.

ومن عرف أنه راجع إلى الله تَغَيَّرَتْ علاقته بالكتابة والكلمة؛ لأن السورة قالت: **(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)**، فالكلمة أثر، والكتاب أثر، والفكرة أثر، وربما يموت الكاتب ويبقى أثره حيًّا يعمل له أو عليه.

وهذه من أعظم رسائل سورة يس إلى أهل الفكر والكتابة والدعوة: لا تكتب كما يكتب الغافلون، ولا تتكلم كما يتكلم من يظن أن الكلام يتبخر في الهواء. الكلمة في ميزان القرآن مخلوق معنوي له امتداد، وقد تكون حسنة جارية، وقد تكون سيئة ممتدة؛ قد توقظ قلبًا في أقصى المدينة، وقد تصنع غشاوة في قلب إنسان؛ قد تحمل رجلًا إلى الصراط، وقد تدفعه إلى الخصومة. ومن كان يؤمن بأن الله يكتب ما قدم الناس وآثارهم، لم يستخف بجمله، ولم يبيع قلمه للغفلة، ولم يجعل البيان زينة بلا هداية.

ولهذا كان نفي الشعر عن النبي صلى الله عليه وسلم في السورة نفيًا عميقًا لا يخص الشعر من حيث فنيته فحسب، بل يخص وظيفة الوحي ومقامه؛ فالقرآن ليس زخرفة للذوق، بل إحياء للإنسان؛ وليس طربًا لغويًا عابرًا، بل ذكر وقرآن مبين؛ وليس خطابًا يعجبك ثم يتركك كما أنت، بل خطاب ينذرك إن كنت حيًّا، ويقيم الحجة عليك إن أعرضت.

ومن هنا ينبغي أن نفهم جمال سورة يس: جمالها ليس جمالًا مفصلاً عن رهبتها، ورهبتها ليست مفصولة عن رحمتها، ورحمتها ليست مفصولة عن عدلها، وعدلها ليس مفصلاً عن توحيدها. إنها سورة متكاملة؛ تبدأ من القرآن

الحكيم وتنتهي إلى الملكوت، وبينهما يتحرك الإنسان من الغفلة إلى اليقين، أو من الإعراض إلى المصير المحتوم.

وإذا كانت سورة السجدة تبني الإنسان الساجد عبر هندسة اليقين، فإن سورة يس تبني الإنسان المستيقظ عبر هندسة الإحياء؛ فهناك كان السجود ثمرة اليقين، وهنا تكون الحياة ثمرة الذكر. في السجدة يتجافى الجنب عن المضجع لأن القلب رأى الآخرة، وفي يس يخرج الإنسان من مرقد الغفلة لأنه سمع القرآن الحكيم. في السجدة ترى الإنسان المؤمن لا يستطيع أن يسترخي أمام ذكر المصير، وفي يس ترى الإنسان الحي لا يستطيع أن يمر على الآيات كأنها صامتة. كلاهما بناء قرآني للإنسان، لكن سورة يس تمتاز بأنها تمسك بيد الغافل من كل جهة، وتقول له: اقرأ، انظر، اسمع، تذكر، اشكر، اتق، اعقل، ارجع.

إنها سورة لا تصلح أن تُحبس في طقس جنائزي فقط، مع جلال قراءتها في كل حال، بل ينبغي أن تُعاد إلى وظيفتها الكبرى: أن تُقرأ على الأحياء، على القلوب التي ما زالت قادرة على الرجوع، على العقول التي ما زالت قادرة على التعقل، على الألسنة قبل أن تُختم، على الأيدي قبل أن تشهد، على الأقدام قبل أن تُسأل عن مساراتها، على الكتاب قبل أن تمتد آثارهم، على المترفين قبل أن ينسوا النعمة، على الشباب قبل أن ينگّسهم العمر، على الشيوخ قبل أن يفاجئهم الرحيل، على كل إنسان ظن أن الموت بعيد، وأن البعث مستبعد، وأن الملك له، وأن الوقت له، وأن القول له.

سورة يس تقول له: لا.

القرآن لله.

والرسالة من الله.

والصراط إلى الله.

والأرض يحييها الله.

والحب يخرج به الله.

والشمس تجري بتقدير الله.

والقمر يمضي بمنازل قدرها الله.

والفلك يحمله الله.

والأنعام ذللها الله.

والأفواه يختمها الله.

والجوارح ينطقها الله.

والعظام يحييها الله.

والأمر أمر الله.

والملكوت بيد الله.

والرجوع إلى الله.

فأين يذهب الإنسان بعد هذا؟

أين يهرب وهو محاط بآيات ربه من فوقه ومن تحته، ومن ماضيه ومستقبله،
ومن طعامه وجسده، ومن شيخوخته وقبره، ومن الكلمة التي يقولها والأثر
الذي يتركه؟

إن سورة يس لا تسأل الإنسان سؤالاً معرفياً فقط، بل تسأله سؤال مصير:

هل أنت حي؟

فإن كنت حيًّا، فاسمع.

وإن سمعت، فاتبع.

وإن اتبعت، فاشكر.

وإن شكرت، فاستقم.

وإن استقمت، فاستعد للرجوع.

وإن رجعت إلى الله بقلب عرفه في الدنيا، لم يكن الرجوع فرعًا مجردًا، بل انتقال عبدٍ عرف طريقه إلى رب رحيم.

وهنا يكتمل معنى العنوان:

يس: هَنْدَسَةُ الْإِحْيَاءِ وَبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَيْقِظِ

فالهندسة هي هذا الترتيب البديع الذي ينتقل من الوحي إلى القلب، ومن القلب إلى الكون، ومن الكون إلى البعث، ومن البعث إلى الملكوت. والإحياء هو خروج الإنسان من موت الغفلة إلى حياة الذكر.

والإنسان المستيقظ هو ذلك الذي لا ينتظر أن يقال له عند البعث: (مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا)، بل يبعث نفسه الآن من مرقد الاعتیاد، ويقوم إلى القرآن، ويقرأ العالم بعين الشكر، ويجعل جسده شاهدًا له، لا عليه، ويترك في الأرض أثرًا يرضى أن يلقاه يوم يقال للخلق جميعًا: احضروا.

وفي النهاية، لا يبقى إلا التسبيح: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).